مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد



ماريا ايڤانوڤنا

(ابنة الضابط)

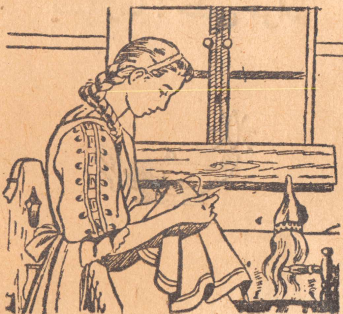
للكاتب الروسي الخالد

الكسندر بوشكين

الكسندر بوشكين

ماريا ايفانوفنا

(ابنة الضابط)



LA FILLE
DU CAPITAINE
PAR
ALEX POUCHKINE

الثمن 1 000

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الثامن والخمسون

ترجمة : سامى الدروبى

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

٥٩٥٥٦

مجموعة كتـــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها أربعة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثمانية وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتـــويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكه السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

(١) رقيب فى الحرس

«حافظ على شرفك منذ أيام الصبا»
قول روسى مأثور

• كان « آندريه بتروفتلش جرينياف » يعمل أبان شبابه فى الجيش ، تحت قيادة كونت مونيخ ، وأحيل الى المعاش برتبة (ضابط أول – أركان حرب) سنة ألف وسبعمائة و .. وعاش – منذ ذلك الحين – فى أرضه بسيمبرسك ، حيث تزوج ب «أدفوتيا فاسيليفنا اب ..» ، وهى ابنة سيد فقير من سكان المنطقة . وانجب الزوجان عشرة اولاد ، الا ان جميع اخوتى ماتوا فى سن مبكرة .

وكنت لا ازال فى رحم أمى ، حين سجلت برتبة رقيب فى فوج سيمينوف ، بمساعى الضابط الأمير « ب .. » ، أحد اقربائنا . **ولو قد ولدت أمى بنتا بدلا منى على خلاف كل ما كان ينتظر ، لأعلن أبى للمراجع المختصة موت الرقيب «الذى لم يستجب للدعوة» ، ولوقف الأمر عند هذا الحد .** غير أننى ولدت صبيا : « ومنحت اجازة » الى أن انهى دراستى .

وكنا فى ذلك الوقت نربى تربية مختلفة كل الاختلاف عن تربية اليوم . عهد بى – منذ الخامسة من عمرى – الى الخادم « سافيليتش » ، الذى استحق لسلوكه الممتاز لقب «مربى» السيد الصغير . وباشرافه تعلمت القراءة فى الثانية عشرة من عمرى ، وأصبحت قادرا على ابداء رأى وجيه فى مزايا .. كلب سلوقى . وفى تلك الآونة ، استأجر لى أبى معلما فرنسيا هو مسيو « بوبريه » .. طلبه من موسكو ، كما طلب – فى الوقت نفسه – مؤونة سنوية من الخمر وزيت

الزيتون . واستاء «سافيليتش» استياء شديدا من وصول هذا المربى الجديد . فكان يدمدم بينه وبين نفسه قائلا : « أحسب أن الولد قد أحسن تنظيفه وتلبيسه واطعامه ، فما الداعى الى انفاق المال فى استئجار مسيو فرنسى .. كأن ليس بيننا أكفاء ! »

وكان « بوبريه » فى بلاده حلاقا ، ثم عمل فى بروسيا جنديا ، وجاء أخيرا الى روسيا ليكون « معلما » ، دون أن يفهم معنى هذه الكلمة على وجه الدقة . وآفته الكبرى ميله الى الجنس اللطيف ، وكثيرا ما اتفق أن قوبلت عواطفه بضربات ، فاذا هو يظل يتوجع اياما بكاملها . ثم انه لم يكن « عدو الكأس » أبدا ، كما كان يقول هو نفسه .. ومعنى هذا فى الروسية القحة أنه يسرف فى الشراب . ولكن لما كان النبيذ لايقدم فى بيتنا الا فى وجبة الغداء ، وكان لايقدم للشخص الا قدح واحد ، وكان المربى - فوق ذلك - ليس له منه فى العادة نصيب ، فان صاحبى « بوبريه » سرعان ما تعود الأشربة الروسية ، حتى أصبح يفضلها على خمور بلاده .. لأنه يجدها مهضمة أكثر من خمور بلاده !

وقد سادت بيننا روح التفاهم فورا ، وبرغم أن بنود الاتفاق نصت على أن عليه أن يعلمنى « الفرنسية والألمانية وجميع أنواع العلوم » ، فقد آثر أن يتعلم منى بعض مبادىء الروسية ، ثم شغل كل منا بعد ذلك بشؤونه الخاصة .. كنا نعيش صديقين . وما تمنيت أبدا أن يكون لى مرب غيره . ولكن ، سرعان مافرق بيننا القدر .. واليكم كيف تم ذلك :

فى ذات يوم قررت الغسالة « بالاشكا » - وهى بنت سمينة ذات وجه مجدور - وقررت معها راعية البقر العوراء « أكولكا » ، أن ترتميا على قدمى أمى ، وتعترفا لها بأن

« المسيو » قد غرر بهما واستغل سذاجتهما ، فأوقعهما فى الاثم .. قالتا ذلك وهما تسكبان دموعا غزيرة . وكانت أمى لاتحب مثل هذا المزاح ، فنقلت النبأ الى أبى .. وأبى امرؤ لايبطىء ولايتلكأ فى مثل هذه الحالات ، فأمر باحضار الفرنسى السافل على الفور . فلما قيل له ان « المسيو » مشغول باعطائى درسا ، جاء الى غرفتى بنفسه ..

وكان «بوبريه» فى تلك اللحظة متكوما على سريره يغط فى نوم عميق .. وكنت أنا مشغولا بأمر هام . وهنا يجب أن اذكر أنهم كانوا قد احضروا لى من موسكو خريطة جغرافية، وكانت هذه الخريطة معلقة على الحائط دون ان تفيد فى شىء البتة . وكان قد انقضى زمن طويل على افتتانى بجمال شكلها وجودة ورقها ، **فقررت أن أصنع منها « طيارة » ، وانتهزت فرصة نوم بوبريه فشرعت فى العمل** ، وقد دخل أبى لحظة كنت منهمكا فى تركيز ذنب الطائرة على رأس الرجاء الصالح !

فلما رآنى منهمكا الى هذا الحد فى « تمارين جغرافية ! » ، شد أذنى ، ثم التفت الى بوبريه يقرعه ويؤنبه . وحاول بوبريه أن ينهض — وقد ارتبك ارتباكا شديدا — الا انه لم يستطع النهوض .. **لقد كان الفرنسى التعيس كالميت من شدة السكر ، فشده أبى من تلابيبه ، وانتزعه من سريره ، ورماه على باب الغرفة ، وطرده من البيت فى ذلك اليوم نفسه .**

وسر «سافيليتش» من ذلك أيما سرور !.. وكان هذا الحادث خاتمة « ثقافتى » ، فعشت بعدئذ طفلا مدللا ، أصطاد الحمام واسترسل فى انواع اللعب مع أبناء خدمنا ، حتى بلغت نهاية السادسة عشرة من عمرى ، فطرا على حياتى تغير هام .

***

في ذات يوم من أيام الخريف ، كانت أمي في الصالون تصنع معقود العسل .. وكنت انا ألاحظ للرغوة الفائرة على سطح الوعاء .. وكان أبي واقفا الى النافذة يتصفح « جريدة البلاط » ، وهي نشرة سنوية تصل اليه بانتظام .. وكان أبي يهتم بهذا الكتاب اهتماما عظيما ، فكانت قراءته ذات قدرة عجيبة على اثارته . وكانت أمي — وقد حفظت عادات زوجها عن ظهر قلب — تحاول أن تخفي هذا الكتاب المنحوس في أبعد مكان ، فكان يظل أشهرا برمتها لايقع تحت بصر أبي .. حتى اذا عثر به عرضا ، ظل يقلبه ساعات طويلة .

كان أبي يقرأ — اذن — هذا الكتاب في ذلك اليوم ، فكان يهز كتفيه من حين الى حين ، وهو يردد بصوت منخفض : « أيصبح هو لواء ، وقد كان في كتيبتي رقيبا ؟ ! » . وأخيرا رمى الكتاب على الديوان ، وغرق في تأمل لايبشر بخير .. **وفجأة ، التفت نحو أمي يسألها : « آفدوتيا فاسيليفنا ، ماعمر بتروشا ؟ »**

— دخل في السابعة عشرة . لقد ولد سنة فقدت العمة ناستاسيا جراسيموفنا عينها ، وسنة ..

— حسنا .. آن أوان التحاقه بالخدمة العسكرية . كفاه تسكعا بالقرب من غرف الخادمات ، وتسلقا الى أعشاش الحمام .

فلما تصورت أمي أنها ستنفصل عني في القريب ، انفعلت انفعالا شديدا ، حتى لقد سقطت الملعقة من يدها في القدر ، وسالت على خديها دموع غزيرة . اما انا ، فلم اجد ما اعبر به عن حماستي . **لقد كانت فكرة الخدمة العسكرية متحدة في ذهني بفكرة الحرية وملذات العاصمة . وتصورت نفسي منذ الآن ضابطا في الحرس ،وكان ذلك في نظري غاية مايطمع فيه انسان من سعادة .**

وابى أمرؤ لايحب أن يبدل ما يعزم عليه من امر ، ولا أن يرجىء التنفيذ . فما هى الا لحظات حتى حدد يوم سفرى . وقال لى - فى اليوم التالى - اننى سأحمل رسالة الى رئيسى ، وطلب أن يأتوه بقلم وورق . فقالت الأم : « لاتنس أيضا ، يا آندريه بتروفتش ، أن تبلغ الأمير «ب . .» تحيتى ، وقل له أننى آمل أن لا يضن على بتروشا بعطفه وفضله » .

فأجاب أبى مقطبا حاجبيه : «ولكن علام أكتب للأمير ب . . ؟»

- الم تقل انك ستكتب الى رئيس بتروشا ؟

- نعم

- اليس الأمير « ب . . » رئيسه ؟ . . اليس بتروشا مسجلا فى فوج سيمينوف ؟

- **مسجل ؟ ! . . وما قيمة التسجيل ؟ . . ان بتروشا لن يذهب الى سان بطرسبرج . ماعسى ان يتعلم هنالك ؟ . . يبدد ماله ويرتكب الموبقات ؟** . . كلا ، يجب أن ينخرط فى الجيش . يجب أن يتعلم الخدمة العسكرية . . يجب أن يعرف ما هو البارود ، وان يصبح جنديا باسلا ، لاشابا طائشا ! . . مسجل فى الحرس ؟ ! . . أين جواز سفره ؟ . . ائتينى بجواز سفره !

وجاءت أمى بجواز السفر - وكانت قد أودعته صندوقها مع القميص الذى كنت أرتديه يوم تعميدى - فمدته الى أبى بيد مرتجفة . . وقرأ أبى جواز السفر بانتباه ، ثم وضعه على المنضدة أمامه ، وبدأ كتابة رسالته . وتيقظ فى نفسى حب الاستطلاع : ترى أين يرسلوننى اذا لم يرسلونى الى سان بطرسبرج ؟ ولم أحول بصرى عن حركة القلم ، وكان القلم لايتحرك الا ببطء . .

واخيرا فرغ أبى من الكتابة ، فوضع الرسالة وجواز السفر كليهما فى ظرف واحد ، وختم الظرف ، ثم نزع

نظارتيه ودعاني الى جانبه قائلا : « خذ ! .. هذه رسالة الى آندريه كارلوفتش ، صديقي القديم ورفيقي فى السلاح . ستمضى الى (أورنبورج) ، وتكون تحت امرته » .

هكذا خابت آمالي البراقة ! .. لن أعيش اذن حياة مرحة فى سان بطرسبرج ، بل حياة كابية مملة فى أعماق ركن بعيد من الريف . وبدت لى حياتي المقبلة ـ التى كنت أحلم بها منذ دقيقة واحدة في حماسة عظيمة ـ كأنها فاجعة حقيقية على حين غرة .. الا أن المناقشة لا محل لها مع أبى !

وفى الصباح من الغداة ، كانت عربة الرحيل تقف عند باب البيت ، وقد وضعت فيها حقيبتى ، ووضع فيها صندوق يضم أدوات الشاى ، وصرر محشوة بأقراص الفطائر .. وكان ذلك آخر بادرة من بوادر حنان الأم . وباركنى ابواى .. وقال ابى : «فى رعاية الله يابترو ، وآمل أن تفيد فى خدمتك أولئك الذين ستقسم لهم يمين الاخلاص .. اطع رؤساءك ، ولكن لاتستجد عطفهم .. لاتكن متهورا ، ولكن لاتتخلف عن القيام بالواجب ، وتذكر المثل القائل : على المرء ان يحتفظ بعفته وبشرفه منذ أيام صباه ! »

وبكت أمى بكاء سخيا ، وتوسلت الى أن أعتنى بصحتى ، وناشدت سافيليتش أن يسهر على ولدها .. والبسونى فروة من جلد الأرنب . ثم البسونى فوقها معطفا من فراء الثعلب . وصعدت عربتى يتبعنى سافيليتش .. وتركت المنزل الأبوى وانا أذرف الدموع .

***

وصلت (سيمبرسك) فى الليلة نفسها .. وكان علينا ان نمكث فيها نهارا بكامله ، نشترى ما نحن فى حاجة اليه من اشياء كثيرة . فنزلنا فى احد الفنادق ، وعهدت الي

سافيليتش بشراء ماينبغى شراؤه . فمضى - منذ الصباح - يتنقل بين « الدكاكين » . وسئمت النظر من خلال النافذة - وكانت تشرف على درب موحل - فأخذت أطوف بين الغرف . فلما وصلت الى غرفة « البليارد » ، رأيت رجلا فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره ، ذا شارب طويل أسود ، وقد ارتدى ثوب البيت ، وفى فمه غليون ، وبيده عصا « البليارد » . وكان الرجل يلعب « البليارد » مع العامل المولج (١) بالعد ، فكان اذا غلبه العامل أمر له بقدح من « الفودكا » ، واذا غلب هو العامل حمله على أن يمر تحت طاولة « البليارد » وهو يحبو على أربع ! .. ووقفت اشاهد اللعب .. كانت نزهات العامل تحت الطاولة على أربع قوائم تكثر شيئا بعد شىء ، الى أن ظل - فى آخر مرة - تحت طاولة « البليارد » ، فصاح خصمه كانما هو يرثيه .

ثم اقترح على أن ألعب معه ، فرفضت ذاكرا اننى أجهل هذه اللعبة ، فبدا له ذلك عجيبا ، وألقى على نظرة لمحت فيها الأسف !

وانعقدت بيننا - مع ذلك - اواصر التعارف . فعلمت انه يدعى « ايفان ايفانوفتش زورين » ، وانه كان ضابطا فى الفرسان ، وقد اتى الى (سيمبرسك) لحضور حفلة تجنيد ، وأنه نزيل هذا الفندق نفسه . ثم دعانى الى تناول العشاء معه بلا كلفة ، على الطريقة العسكرية ، فقبلت الدعوة شاكرا . وجلسنا الى المائدة ، فشرب كثيرا ، وحملنى على الاكثار ، «ليعودنى الخدمة» ، على حد تعبيره .. وقص على - اثناء ذلك - من النوادر العسكرية ما ضحكت له حتى نفرت من

---

(١) الواضح من السياق ان المترجم قصد « الموكل » .

عينى الدموع. ونهضنا عن المائدة على أحسن مايكون صديقان.

وسرعان ماتبرع بتعليمى لعبة «البيارد» . قائلا : «أننا — معشر العسكريين — نحتاج حقا الى هذا .. مثلا ، حين يكون أحدنا فى الريف ، فيصل الى قرية صغيرة ، ماذا عساه يفعل ؟ .. اننا لانستطيع أن ننفق كل وقتنا فى اضطهاد اليهود ، ولابد ان يمضى أحدنا الى الفندق — شاء أم أبى — فيلعب بعض الوقت .. ولابد اذن من معرفة اللعب ! »

وبدا لى هذا الكلام منطقيا . وانصرفت الى الانتفاع بـ « تعليمه » فى اهتمام ، فكان يشجعنى بصوت مرتفع . وظهر عليه أنه فى دهشة عظيمة من سرعتى فى التعلم .

واقترح على — بعد عدد من الدروس — أن نلعب متراهنين على بعض الدراهم ، مهما تكن قليلة .. لابغية الربح ، بل حتى لانلعب على فراغ ، لأن ذلك فى رأيه من أسوأ العادات !

.. وطلب «زورين» نوعا من الشراب ، حملنى على أن أذوقه ، وهو لايفتأ يردد ان على ان اتعود الخدمة ، وأن الخدمة بلا شراب لاتجدى فتيلا .. وتحمست ، وكانت جراتى تزداد بازدياد عدد الأقداح التى أفرغها فى جوفى ، حتى أصبحت كراتى تقفز فوق حافة الطاولة قفزا . وانفعلت ، فاتهمت العداد بأنه لايحسن العد ، وانه يربى اخطائى ساعة بعد ساعة .. والخلاصة أننى تصرفت تصرف طفل ترك له الحبل على غاربه . وكانت الساعات — أثناء ذلك — تنقضى .. وألقى زورين نظرة سريعة على الساعة ، ثم وضع عصاه معلنا اننى قد خسرت مائة روبل . واضطربت لهذا اضطرابا غير قليل ، لأن دراهمى كانت مع سافيليتش ، فأخذت أقدم له أعذارى .. ولم يدعنى أتم كلامى ، بل قال : « لاداعى الى القلق .. استطيع أن أمهلك ! .. هل تحب أن تاتى معى ؟ .. من الممكن الآن أن اقدمك الى آرينوشكا ! »

واستجبت لدعوته ، وانهيت النهار فى حماقة وبلاهة كما بدأته . فقد تعشينا عند آرينوشكا . **وكان زورين ماينفك يسكب لى قدحا بعد قدح ، وهو يردد أن على أن « أتعود الخدمة »** ! .. وحين نهضنا عن المائدة ، كنت لا اكاد أستطيع الوقوف من شدة السكر .

وكان الليل قد انتصف حين أعادنى زورين الى الفندق .. واستقبلنا سافيليتش لدى الباب ، فصرخ حين رآنى على هذه الحال من الحماسة للخدمة (!) ، وقال بتأوه : « ماذا جرى لك ياسيدى ؟ .. أين مضيت حتى عدت على هذه الحال ؟ .. رباه ! لم أشهد فى حياتى منظرا كهذا المنظر » . ففأفأت أجيب : « اسكت ياعجوز النحس . لعلك سكران ! .. ضعنى فى السرير ، واذهب الى النوم ! »

وفى الصباح التالى ، استيقظت من نومى وانا أشعر بصداع هائل ، ولا أكاد أتذكر حوادث البارحة . وقطع سافيليتش تأملاتى ، وقد أقبل يحمل الى قدحا من الشاى . وقال وهو يهز رأسه : « لقد بكرت يابترو اندريفتش .. مازلت اصغر سنا من أن تسترسل هذا الاسترسال . **ثم من اين اتاك هذا ؟ .. ماكان ابوك سكيرا ، ولا كان جدك سكيرا . اما أمك فلا داعى الى ذكرها هنا ، فانها لم تشرب فى حياتها كلها غير عصير الفاكهة !** .. ومن المسئول عن هذا ؟ .. انه ذلك « المسيو » اللعين (١) .. كان لاينفك يسرع الى حانة آنتيفنا يقول : «أرجوك ، يامدام .. فودكا !» .. هذا ما اوصلنا اليه ذلك المسيو الفرنسى . لقد علمك اشياء جميلة جدا ، هذا الكلب ابن الكلب .. كأنما كنا فى

(١) يقصد المدرس الفرنسى «بوبريه» .

حاجة الى ان يربيك رجل هرطيق ! .. كأن لم يكن فى البيت ما يكفى من ناس عقلاء ! »

وشعرت بالخجل والعار . فأشحت وجهى قائلا : « أذهب ياسافيليتش ، فلست فى حاجة الى شاى » . ولكنه كان اذا استرسل فى مواعظه ، يستحيل ايقافه . فاستمر يقول : «هل رأيت الآن يابترو اندريفتش مانتيجة الشراب ؟ .. انه يثقل الرأس ، ويفقد شهوة الطعام . ان الرجل الذى يشرب لايصلح لشىء .. هل تحب أن آتيك بقدح من حساء الخيار مع العسل ؟ .. الأفضل مع ذلك ان تحتسى نصف قدح من شراب قوى .. هل تريد ؟ » .. وفى هذه اللحظة ، دخل خادم شاب ، يحمل الى بطاقة من زورين . ففضضت البطاقة ، وقرأت فيها مايلى :

« **صديقى العزيز بترو اندريفتش** : ارجو ان ترسل الى مع الخادم مائة الروبل التى خسرتها امس فى اللعب ، فانا فى حاجة ماسة اليها ! — **المخلص : ايفان زورين** »

لامفر ! .. أصطنعت هيئة من لايبالى ، واتجهت الى سافيليتش — الذى كان « مكلفا » بمالى وثيابى واشيائى — فأمرته ان ينقد الخادم مائة روبل . فسألنى وقد صعق من شدة الدهشة : « لماذا ؟ لأى غرض ؟ »

— **اننى مدين له بهذا المبلغ !**

قلت ذلك فى اكبر هدوء ممكن ، فأخذ سافيليتش يردد ، وقد ازداد اضطرابه : « مدين له بهذا المبلغ ؟ .. ولكن هل اتسع وقتك حتى الآن للاستدانة ؟ .. يبدو لى أن فى هذا الأمر شيئا عجيبا ! .. على أننى لن أدفع المال فى أى حال ! »

وشعرت أننى ان لم أخضع هذا العجوز فى هذه اللحظة ، فسيتعذر على أن أتحرر من وصايته فيما بعد . فرميته بنظرة شامخة قائلا : « أنا سيدك ، وأنت خادمى .. والمال

مالى ، وقد خسرته لأن ذلك قد حلالى. أما أنت ، فانصحك بأن لاتتحذلق ، وبأن تطيع ما يلقى اليك من أوامر ! » ..
وبلغ سافيليتش من شدة الدهشة أنه لم يجد ما يجيب به غير أن عقد يديه ، فصحت قائلا فى لهجة من فرغ صبره : « ماذا تنتظر ؟ » .. فأخذ يبكى ، ثم قال بصوت مرتجف :

« ياتوشكا بترو آندريفتش ، لاتمتنى غما وكربا ! .. ياقلبى العزيز ، أطع مربيك القديم . أكتب الى هذا اللص أنك كنت هازلاً غير جاد ، وأننا لانحمل مثل هذا المبلغ ..
مائة روبل ! يا الهى! .. قل له ان أبويك قد حظرا عليك حظرا مطلقا ان تلعب على غير حبات من البندق ! »

قلت فى قسوة : « كفى ثرثرة ! .. هات المال ، والا طردتك بضربات من نعلى ! » .. فألقى على سافيليتش نظرة تفيض بالحزن ، ومضى يأتى بالمال . وكنت أشفق على هذا الرجل المسكين ، الا أننى كنت أريد أن استقل ، وان اشعر بأننى لست طفلا .. وتسلم زورين المال . ثم سارع سافيليتش فأخرجنى من هذا الفندق الذى جر على الويل .. وأنى يبلغنى أن الخيل معدة . فتركت سيمبرسك وفى ضميرى عذاب ثقيل وندامة خرساء . ولم أودع «معلمى» زورين ، ولا دار فى خلدى أننى سأراه مرة اخرى فى يوم من الأيام .

(٣) الدليل الذى ساقته العاصفة !

« ايه ايها البلد المجهول ..
« ما أتيت الى هنا طوعا ،
« ولا قادنى اليك جوادى الكريم ،
« وانما هى حماستى وبأسى وشجاعتى ،
« وميلى الى خمور الحانات .. » ـ اغنية

• **استغرقت** ـ خلال هذه السفرة الثانية ـ فى تأملات مؤلمة .. أن المبلغ الذى فقدته مبلغ ضخم ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى اسعار الأشياء فى ذلك الوقت . وكنت لا استطيع الا ان أدرك أن سلوكى فى الفندق كان سلوكا ابله على اقل تقدير . وشعرت بأننى مخطىء فى حق سافيليتش .. كان ذلك كله يعذبنى .

وظل المسكين ساكنا لايتحرك ، وقد ظهر على وجهه الحزن والاسف ، دون ان ينظر الى ، ودون ان يخاطبنى بكلمة واحدة .. وكنت راغبا فى أن أصالحه حقا ، ولكننى لم أكن أعرف السبيل الى مصالحته . فقلت له اخيرا : « اسمع يا سافيليتش .. يكفى هذا الآن ، ولنتصالح ! .. أدرك الآن أننى مخطىء . لقد ارتكبت بالأمس حماقات ، واليوم اغلظت لك القول دون ما سبب . **فاعدك بأن احسن سلوكى فى المستقبل ، وأن أطيعك فى كل أمر . هيا ، هيا ، لاتغضب ! .. لنتصالح ! »**

فأجاب وهو يطلق من صدره زفرة عميقة : « آه ياباتوشكا بترو آندريفتش ، لست الوم الا نفسى .. أنا المذنب . كيف امكن ان أتركك وحدك فى الفندق ؟ .. ان الشيطان قد اغوانى ! اردت ان ازور امراة خادم الكنيسة التى كانت اشبينتى .. ما اشقانى ! كيف امثل بين يدي سيدي ؟ ..

ماعسى أن يقولا عنى ، اذا عرفا أن ابنهما يعاقر الخمرة ويقامر ؟ »

وأردت أن أواسيه ، فقطعت له على نفسى عهدا ان لا انفق بعد الآن فلسا واحدا (كوبك) دون موافقته . وهدأ روعة شيئا فشيئا ، رغم أنه كان يهز رأسه من حين الى حين ، وهو يدمدم بقوله : « مائة روبل ! .. الكلام سهل ! .. »

ومضينا نتقدم نحو محط الرحال : حقول حزينة مقفرة تخترقها هضاب وتتخللها اخاديد من مجارى السيول ، تمتد من حولنا حتى الافق .. والثلج يغطى كل شيء .. والشمس تغرب .. والعربة تسير فى طريق ضيق ، أو قل فى ممر شقته عربة من عربات الفلاحين . وفجأة أخذ الحوذى يحدق فى نقطة من الأفق ، ثم التفت الى وقال وهو يرفع قبعته : « الا يأمرنى سيدى بأن أعود أدراجى ؟» . فسألته : « لماذا ؟ »

ــ أن الجو لايبشر بخير ، فالريح أخذت تهب .. انظر كيف تطرد ذرات الثلج !

قلت ساخرا : « خطر عظيم ! » . فقال وهو يسدد سوطه نحو المشرق : « ولكن انظر هنالك ، الا ترى ؟ »

ــ لا أرى الا سهلا أبيض وسماء صافية .

ــ وتلك الغمامة الصغيرة ؟

بصرت فى أقصى الافق بغمامة بيضاء ، كنت قد حسبتها رابية بعيدة ، فأوضح لى الحوذى انها تنذر بعاصفة ثلجية . وكنت قد سمعت عن هذه الرياح العاتية التى تخرب القرى وتدفن فى بعض الأحيان ركبانا بأسرها . ونصح سافيليتش ــ الذى وافق السائق على مخاوفه ــ أن نعود أدراجنا ، الا ان الريح لم تبد لى قوية جدا ، وكنت آمل ان تصل الى

المحطة التالية فى وقت مناسب ، فأمرت الحوذى بأن يغذ فى السير .

وراحت الخيل تنهب الأرض خببا ، بينما السائق لايكف عن النظر الى ناحية الشرق . كانت الخيل تجرى نشيطة قوية ، الا أن الريح اشتدت ، واستحالت الغمامة الصغيرة الى سحابة ضخمة بيضاء أخذت تتسع - ثقيلة هائلة - وتكبر ، حتى غطت السماء كلها . وأخذ الثلج يهطل ، رذ ذا دقيقا فى أول الأمر ، وسبائخ (١) ضخمة بعد ذلك .. والريح تزأر . انها العاصفة ! .. وما هى الا لحظة حتى أصبحت الأرض الفسيحة والسماء القاتمة بحرا من الثلج .

صرخ الحوذى يقول : « انها العاصفة ياسيدى .. يا ويلنا ! » . فأخرجت رأسى من العربة ، فلم أر الا ظلمات وزوابع تزأر كأنها حيوان هائل .. وغطانى الثلج تماما ، كما غطى سافيليتش . ولم تعد الخيل تتقدم الا فى كثير من العناء ، ثم لم تلبث أن توقفت . فقلت وقد فرغ صبرى : « لماذا لاتتقدم ؟ » . فأجاب الحوذى وهو ينزل عن مكانه : «الى اين تريد ان أسير ؟ .. الله يعلم اين نحن الآن ، فلست أرى طريقا ، وليس ثمة الا ظلام دامس ! »

وأخذت أكيل له اللوم جزافا ، فتدخل سافيليتش ودافع عنه ، ودمدم يقول فى حنق : «لماذا لم تطعه ؟ .. أبيت الا ان يتقدم ، بدلا من أن نعود أدراجنا الى النزل ، فنحتسى الشاى وننام حتى الصباح ، فتكون العاصفة قد انقضت ، ونستأنف المسير .. ما الذى يدفعنا الى هذه السرعة كلها ؟ .. انحن ذاهبون الى عرس ؟ ! .. »

---

(١) السبيخ هو ما تناثر من الريش او القطن .. وتستخدم مجازا للثلج .

***

وكان سافيليتش على حق ، ولكن ما من وسيلة لاصلاح الموقف ! .. واستمر الثلج يهطل ، وأخذ يتكوم أمام العربة . ورأيت الخيل تطأطىء رؤوسها ، وترتعد من حين الى حين . وأخذ الحوذى يدور حولها ويرتب عدتها تزجية للوقت . وجعل سافيليتش يدمدم متذمرا . أما أنا ، فكنت أنظر من حولى الى جميع الجهات لعلى اعثر ولو على اثر للطريق ، أو لعلى أهتدى الى مسكن من المساكن ، الا اننى لم ار الا الثلج يحيط بنا . وفجأة ، لمحت كتلة قاتمة فهتفت : « يا حوذى .. أنظر ! ماذا ترى هنالك ؟ »

وحاولت نظرة الحوذى ان تخترق الظلام . ثم اجاب وهو يعود الى مكانه : « الله أعلم ما هذا أيها السيد . ليس هو عربة ، ولا شجرة .. لكأنه يتحرك . لعله ذئب ، أو انسان ! » . فأمرته أن يمضى نحو هذا الشيء المجهول ، الذى كان يتقدم نحونا هو أيضا . وما هى الا دقيقة أو دقيقتان حتى التقينا برجل . فصاح الحوذى يسأله : « انت أيها الأخ ! .. قل لنا ، هل تعرف أين الطريق ؟ » . فأجاب الرجل : « الطريق ؟ .. هذه هى . ولكن ما الفائدة من ذلك ؟ »

قلت : « اسمع أيها الأخ الشهم ، هل تعرف المنطقة ؟ .. هل تستطيع أن تقودنا الى اقرب مكان ماهول ؟ »

ـ المنطقة أعرفها . لقد طفتها من كل جهة ، طفتها على صهوة الجواد ، وطفتها سائرا على القدمين . ولكنك ترى حالة الجو .. اننا لن نسير خطوتين حتى تزول معالم الطريق .. والأولى أن لا نتحرك من مكاننا ، وان ننتظر هدوء العاصفة وانكشاف السماء ، فقد نستطيع عندئذ أن نستهدى النجوم .

وبث هدوءه الشجاعة فى نفسى ، فقررت ان أكل امرى الى الله ، وأن أقضى الليلة فى هذا الخلاء ، فاذا بالرجل يقفز خفيفا الى مقعد السائق ، على حين غرة ، قائلا له : « الحمدلله .. لسنا بعيدين عن احد المساكن . تحول الى اليمين ؛ وهيا بنا ! » . فسأله الحوذى مغتاظا : « وماذا هنالك على اليمين ؟ وأين ترى الطريق ؟ .. أن الخيل ليست لك ، والعربة ليست لك ، وليس يهمك ان تموت الخيل أو تتحطم العربة ! »

وبدا لى أن السائق على حق ، فاعترضت على اقتراح الرجل قائلا : « هذا صحيح ، كيف تعرف ان هنالك مسكنا ؟» . فأجاب الرجل موضحا : «أن الريح تأتى من هذه الجهة ، وانى لأشم فيها رائحة الدخان .. وهذا دليل على أن ثمة قرية ليست عنا ببعيدة » .

وأدهشتنى حدة ذكائه ، ورهافة شمه ، فأمرت الحوذى ان يتقدم . وسارت الخيل بمشقة ، وهى تغوص فى كل لحظة .. ولم تتقدم العربة الا فى كثير من البطء ، فكانت تارة تصطدم بكومة من الثلج ، وتارة تنزلق فى أخدود ، وهى فى كل الاحوال تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، كأنها قارب تتقاذفه الأمواج فى عرض البحر . وكان سافيليتش يزفر زفرات ملؤها الضيق ، ويرتطم بى فى كل لحظة .

وأسدلت الستار ، وتلفعت بمعطفى ، وغفوت يهدهدنى غناء العاصفة وتموج العربة . فرايت فيما يرى النائم حلما لم أستطع ان انساه فى حياتى ، وما زلت الى اليوم ارى فيه نوعا من النبوءة ، لاسيما حين اقرنه بالاحداث العجيبة التى كتب على أن أعيشها . وارجو ان يعذرنى القارىء ، فلعله يعرف بالتجربة أن الانسان محمول على الاعتقاد بالخرافات ، رغم احتقاره الشديد لجميع الاعتقادات السخيفة التى

تعشش فى عقول العامة . . وقد كنت فى تلك الحالة النفسية التى يتقهقر فيها الواقع أمام الحلم ويختلط به ، فتنشا من اختلاطهما هذه الرؤى المبهمه التى تراود المرء عند اول النوم . .

رايت فيما يرى لنائم أن الزوبعة مازالت تخرب ، واننا مازلنا نضرب فى صحراء يغطيها الثلج . . وفجأة رأيت بابا لدخول العربات ، فدخلنا ، فاذا نحن فى باحة منزلنا المنيف. وكان اول ماخطر ببالى هو أن أتحاشى غضب ابى الذى قد يلومنى على هذه العودة غير المقصودة ، اذ يؤونها بانها عصيان مقصود . فنزلت من العربة وانا اشد ما أكون قلقا ، فرأيت أمى تقبل على ، ووجهها يعبر عن كرب شديد . قالت: « **بهدوء ! . . أبوك مريض جدا . انه يحتضر ، ويريد أن يودعك الوداع الأخير ! »**

فصعقت من الذعر ، وتبعت أمى الى غرفة النوم . وكان الضوء فيها خافتا شاحبا ، فرأيت اناسا واقفين الى جانب السرير ، وقد تجهمت وجوههم حزنا . اقتربت على رؤوس الاصابع ، وازاحت أمى السجف ، وهى تنادى ابى بقولها : « اندريه بتروفتش .. بتروشا هنا . . لقد عاد حين علم نك مريض . أدع له ، وارض عنه ! »

فركعت ، ورفعت نظرى الى المريض . يا الهى ! . . لم أر أبى ، **بل رأيت فلاحا ذا لحية سوداء ، يحدق فى وهو يبتسم ابتسامة مرحة .** فالتفت نحو أمى مضطربا أقول : « مامعنى هذا ؟ ليس هذا ابى ! . . لماذا يجب على أن اطلب الرضى والبركة من هذا الفلاح ؟ » . فأجابت : « سيان يابتروشكا . . انه أبوك لمتبنى . . قبل يده ، واطلب رضاه ! »

رفضت ان أفعل . . عندئذ نهض الفلاح عن السرير قفزا ، واخذ يجوب الغرفة مشهرا فأسا . **واردت ان اهرب فلم**

استطع . وامتلأت الغرفة بالجثث أتعثر بها وأغوص فى برك من الدماء . وناداني الفلاح بصوت حنون : « لاتخف ! .. تعال اطلب الرضى والبركه ! » . فاستيقظت من نومى وأنا اشد ما أكون ذعراً ورعبا واضطرابا . وكانت الخيل قد توقفت ، وكان سافيليتش قد امسك بيدى وهو يقول : « انزل يا سيدى ، لقد وصلنا » . وسألته وأنا افرك عينى : « الى أين وصلنا ؟ »

— الى المنزل .. لقد هدانا الله ، فسرنا على خط مستقيم حذاء سد ، حتى وصلنا الى هنا . هيا انزل ، وأذهب الى النار تستدفىء !

***

تركت العربة .. وكانت العاصفة لاتزال تزأر ، الا ان زئيرها قد خف . وكان الليل حالكا جدا .. واستقبلنا صاحب البيت عند المدخل . وهو يمسك القنديل بيده ويحميه من الريح بطرف ثوبه . وقادنى الى غرفة نظيفة . ولكنها ضيقة ، يضيئها مصباح ، وعلى حائطها علقت بندقية وقبعة قوزاقية .. فان صاحب البيت قوزاقى الأصل ، فلاح فى الستين من عمره ، نضر نشيط . ودخل سافيليتش يحمل صندوقى بيده ، وطلب نارا ليهيىء الشاى . وخيل الى أنه ما أشتهى الشاى فى حياته مثلما أشتهاه اذ ذاك ! .. ومضى الفلاح يحضر ما يجب تحضيره .

وسألت سافيليتش : « واين الدليل ؟ » . فأجاب صوت من فوقى يقول : « انى هنا يا سيدى النبيل » . فرفعت بصرى الى السقيفة ، فرايت لحية سوداء ، وعينين براقتين .

— بردنا كثيرا ؛ أليس كذلك ؟

— وأى برد !.. لاسيما أننى لاأرتدى الا هذا المعطف الملون

.. كانت لى فروة ، ولكني لا أكتمك اننى رهنتها أمس عند احد اصحاب الحانات . لم أكن اتوقع ان يكون البرد شديدا الى هذا الحد !

وفى هذه اللحظة ، دخل صاحب المنزل وهو يحمل ابريق الشاى يتصاعد منه البخار . فدعوت الدليل الى قدح من الشاى ، فترك السقيفة واقبل نحوى . وبدأ لى مظهره غريبا يلفت الانتباه .. كان فى الاربعين من عمره ، ربع القامة ، نحيلا .. الا أن كتفيه عريضان ، وقد اشتعل الشيب فى لحيته السوداء .. وعيناه الواسعتان القويتان لاتستقران على حال ، وملامحه وسامة يشوبها مكر وخبث.

وكان يرتدى معطفا ممزقا وسروالا كالحا . قدمت له قدحا من الشاى ، فلما ذاقه ، ارتسمت على وجهه علائم التقزز وقال : « أيها السيد النبيل .. مر لى بقدح من الخمر، فليس الشاى شرابا لقوزاقى ! »

وبادرت فلبيت طلبه . فقام صاحب البيت الى خزانة صغيرة ، تناول منها زجاجة وقدحا ، ثم اقترب من الدليل ، يريد أن يسكب له الخمرة ، فاذا هو يقول وقد تفرس فى وجهه : « أهذا أنت ؟ .. عدت الى هذه الأراضى ! .. من اين قذفتك الأقدار ؟ »

فغمزه الدليل غمزة ذات معنى ، وأجاب يقول بامثال معماة : « كنت فى المزرعة ، وقنبا نقرت .. رمتنى الأم العجوز بحجر ، لكنها اخطأتنى . كيف حال جماعتكم ؟ » . فأجاب المضيف يكمل هذا الحوار الرمزى : « جماعتنا ؟ .. كانوا قد اخذوا يصلون صلوات العصر . الا ان الكاهنة منعتهم .. الكاهن فى زيارة ، والشياطين فى المقبرة !» . فأجاب المتشرد:

« كفى ياعم !.. حين تمطر السماء تنبت الكمأة ، ومن قال كمأة نال كمأة .. والآن (وهنا غمز بعينه) خبىء فأسك ، فالحارس غير بعيد ! .. أيها السيد النبيل ، انني اشرب نخبك ! »

ثم تناول الكأس ، فصلب وأفرغها فى جوفه دفعة واحدة . ثم حيانى . وقفز مرة أخرى الى السقيفة .

***

لم أفهم شيئا من حديث اللصوص هذا ، ولم أحرز الا فيما بعد أن الكلام كان يدور حول فرقة اليائيق القوقازية ، التى أخمدت ثورتها منذ مدة قصيرة (عام ١٧٧٢) . كان سافيليتش يصغى الى الحديث وقد لاح عليه الامتعاض . وراح يلقى على صاحب البيت وعلى الدليل نظرات ارتياب ..

كان النزل فى قلب الفيافى ، بعيدا عن كل قرية ، كأنه ملجأ عصابة من اللصوص . الا أنه لم يكن ثمة مجال للتردد ، ولا كان يمكن التفكير فى استئناف السفر . واضحكتنى مخاوف سافيليتش ، ثم نمت فوق مقعد طويل . ومضى سافيليتش يعتصم بمصطبة المدفأة ، وتمدد صاحب البيت على الأرض . ولم يلبث النزل أن امتلأ شخيرا مدويا ، واستغرقت فى نوم عميق ثقيل .

واستيقظت فى الصباح متأخرا ، فلاحظت أن العاصفة قد هدأت ، وأن الشمس تسطع. كان الثلج يفرش الأرض بساطا لامعا ممتدا الى الأفق . وكانت الخيل فى انتظارنا ، فدفعت لصاحب النزل ما طلبه من أجر .. وكان أجرا زهيدا ، لم يعترض عليه سافيليتش - على خلاف عادته - حتى لكأنه نسي ظنون الأمس . واستدعيت الدليل أشكره على

حسن صنيعه ، وأمرت سافيليتش أن يعطيه خمسين كوبك . فامتعض العجوز امتعاضا شديدا ، وقال : «خمسون كوبك ؟ لماذا ؟ .. ألأنك تفضلت عليه فنقلته الى النزل بالعربة ؟ .. على رسلك ياسيدى ، فخمسيناتنا لاتزيد عن حاجتنا ، واذا نحن أخذنا نبذر دراهمنـــا ذات اليمين وذات الشـمال فلن يبقى لنا مانسد به جوعنا ! »

ولم يكن فى وسعى أن اعترض ، فلقد وعدت سافيليتش أن يكون المال بين يديه يتصرف فيه كما يشاء . ومع ذلك ، كان يؤسفنى أن لا أستطيع أن اكافىء هذا الرجل الذى انقذنى من مأزق حرج ، ان لم يكن من كارثة. فقلت فى هدوء : «حسنا . **اذا كنت لاتريد أن تعطيه نقودا ، فاعطه شيئا من ملابسى ، فثيابه قليلة لاتقيه القر .. أعطـه فرائى المصنوع من جلد الأرنب ، مثلا ! »**

فقال سافيليتش : « أوه ، باتوشكا بترو آندريفتش ! ما حاجته الى فرائك ؟ .. انه سيتركه فى أول خمارة ، هذا الكلب السكير ! » . فقال المتشرد : « هيه أيها العجوز ! .. ليس يعنيك أين أتركه . ان السيد النبيل قد « خلع على فراءه » ، تلك كانت مشيئة السيد ، وليس من شانك أن تناقش ، وانما عليك أن تطيع كخادم أمين ! »

فأجاب سافيليتش بصوت يرتجف غضبا : «ألا تخاف الله أيها اللص ؟ .. الا ترى أن هذا الطفل لايفهم شيئا ؟ .. الا تستحى من استغلال سذاجته لتنهبه ؟ .. ثم ما حاجتك الى فراء صغير لاتستطيع أن تضعه على كتفيك وضعا ، فضلا عن ارتدائه .. ؟ » . فقاطعته قائلا : « كفى جدالا ، هات الفراء فى الحال ! » . فتأوه سافيليتش قائلا : « يا الهى ! .. الفراء شبه جديد ، وليته يهبه لانسان محترم .. انه يهبه لسكير متشرد حافى القدمين ! »

وظهر الفراء مع ذلك .. وما لبث الفلاح (الموجيك) أن أخذ يجربه . والحق أن الفراء كان ضيقا على ، فكيف لايكون ضيقا عليه ؟ .. واستطاع مع ذلك أن يندس فيه ، ممزقا اياه من جميع الجهات . ولم يجأر سافيليتش . وبدا المتشرد راضيا كل الرضى عن هديتى ، فشيعنى حتى العربة ، وانحنى يودعنى فى تحيه عميقة ، قائلا : «شكرا أيها النبيل ؛ جزاك الله عن كرمك خيرا . لن أنسى فضلك ما حييت ! »

ومضى الى سبيله . وتابعنا نحن رحلتنا . ولم التفت قط ى تأوهات سافيليتش ، وسرعان مانسيت عاصفة البارحة والدليل والفراء .

❀❀❀

فلما وصلت الى (أورنبرج) ، مضيت رأسا الى بيت القائد اللواء . فرأيت رجلا فارع القامة ، مقوس الظهر بعض الشيء - من الشيخوخة - طويل الشعر أشيبه تماما ، تذكر بدلته العسكرية المهترئة الكالحة بالمحاربين فى عهد آنا ايفانوفنا (١) ، وفى لهجته لكنة ألمانية قوية .. وناولته رسالة أبى . وحين ذكر له أسمى ، ألقى على نظرة سريعة ، وقال : «ماشاء الله ! منذ مدة غير طويلة كان آندريه بتروفتش فى سنك ، والآن أسبه له ولد كبير مثلك . الزمان ينكدى بسرأة ! » (٢) وفض الرسالة ، وأخذ يقرأها بصوت مسموع ، مضيفا

---

(١) آنا ايفانوفنا : امبراطورة روسيا من ١٧٣٠ الى ١٧٤٠

(٢) يقصد : « منذ مدة غير طويلة ، كان اندريه بتروفتش فى سنك ، والان أصبح له ولد مثلك .. الزمان ينقضى بسرعة » .

اليها ملاحظات من عنده : **«عزيزى آندريه كارلوفتش : ارجو أن تكون سعادتك ..»** .. ماهذه التأزيمات والتفخيمات ؟ .. طبهـا ، النزام قبل كل شىء ، ولكن هل هكذا يخـاتب رفيك كديم ؟ (١) .. **« لعل سعادتك لم تنس.. »** آه !.. **« الزمن .. المرحوم مارشال مونيد .. الفرقة .. وكذلك كارولين .. »** آه ، انه مازال يذكر رذالاتنا الكديمة .. ولكن لنتهدث فى الأعمال ! (٢) .. **« أرجو ان ترفع يده عاليا »** . ما مانى هذا ؟ .. لاشك انه تأبير روسى كه ! (٣) .

قال ذلك ملتفتا الى يسـألنى ، فأجبت وأنا أصطنع غاية السذاجة والبساطة : «معناه أن يعامل المرء معاملة حسنة ، لاقسوة فيها ولا صرامة ، وأن يمنح أكبر قدر من الحرية . هذا هو معنى رفع اليد عاليا ! »

ـ ها ! فهمت ! .. **« وأن لاتمنحه كثيرا من الحرية »** .. لا ، لا . أأتكد ان الابارة تأنى شيئا آخر (٤) .. **«تجد مع هذه الرسالة جواز سفره ..»** أين هو ؟ .. آه ، هذا هو ! .. **« ارجو أن تكتب الى سيمينوف.. »** نأم ، نأم ، سنأمل كل شىء (٥) **« اسمح لى أن أقبلك بلا حرج ولا كلفة.. صديقك القديم ورفيقك »** .. آه ، انه يتذكر مأ ذلك ! (٦)

قال وقد قرأ الرسالة ووضع جواز السفر جانبا :

---

(١) « ما هذه التعظيمات والتفخيمات ؟.. طبعا ، النظام قبل كل شىء ، ولكن هل هكذا يخاطب رفيقا قديما ؟ »

(٢) « آه ، انه ما يزال يذكر رذالاتنا القديمة . ولكن لنتحدث فى الاعمال!»

(٣) « ما معنى هذا ؟.. لاشك انه تعبير روسى قح ! »

(٤) « لا ، لا .. اعتقد ان العبارة تعنى شيئا آخر ! »

(٥) « نعم ، نعم .. سنعمل كل شىء » .

(٦) « آه ، انه يتذكر مع ذلك ! »

— والآن أيها الولد الشجاء ، سنأمل كل شيء .. سننكلك الى كتيبة « ن .. » برتبة دابت ، والكى لا نديىء الوكت ، ستسافر منذ الغد الى هسن بيلوجورسكايا ، وتتأرف هناك الى رئيسك الجديد ، الدابت الرئيس ميرونوف ، وهو رجل تيب ومهترم . ستكون هناك فى الخدمة الفئلية ، وستتألم النزام . ليس لك شغل فى أورنبورج ، ولا يليك بشاب أن يبكى آتلا ان الأمل . واليوم تتغدى اندى ! (١)

قلت فى نفسى : « عال ، عال ! .. ماذا افادنى أن سجلت رقيبا فى الحرس من قبل أن أولد ؟ .. الى اين اوصلنى هذا ؟ الى كتيبة ن .. فى حصن على حدود فيافى كرغيز ؟ ! »

وتغديت مع آندريه كارلوفتش ومساعده العجوز . وكان يسيطر على المائدة اقتصاد المانى قاس ، واغلب الظن أنه ما نقلنى الى الحصن الا خوفا من أن يرى ضيفا جديدا على مائدته وهو أعزب . واستأذنت القائد اللواء فى الغد ، واستأنفت سفرى الى المكان الذى عين لى .

---

(٢) « والآن ، ايها الولد الشجاع ، سنعمل كل شيء .. سننقلك الى كتيبة «ن ..» برتبة ضابط . ولكى لا نضيع الوقت ، ستسافر منذ الغد الى حصن بيلوجورسكايا ، وتتعرف هناك الى رئيسك الجديد ، الضابط الرئيس (الكابتن) ميرونوف . وهو رجل طيب ومحترم . ستكون هناك فى الخدمة الفعلية ، وستتعلم النظام . ليس لك شغل فى اورنبورج ، ولا يليق بشاب ان يبقى عاطلا عن العمل . واليوم تتغدى عندى ! »

(٣) ابنة آمر الحصن !

« نعيش فى حصن ،
« طعامنا الخبز ، شرابنا الماء ،
« ان جاءنا يوما عدو كاسر ،
« ينازعنا طعامنا ،
« أقمنا له وليمة من نيران المدافع »

من اغانى الجنود

• **يقع** حصن (بيلوجورسكايا) على بعد أربعين فرسخا من (أورنبورج) ، ويمتد الطريق اليه على حافة نهر (اليائيق) الصخرية . ولم يكن الجليد قد بلغ النهر بعد ، فكانت المياه تتدفق بين حافتيه المكسوتين بالثلج حزينة بلون الرماد . ووراء الضفة الثانية كانت تمتد فيافى (كرغيز) .

وغرقت فى تأملات حزينة .. لم يكن فى حياة الثكنة ما يجذبنى البتة . وحاولت أن أتصور الضابط « ميرونوف » - رئيسى المقبل - **فتخيلته عجوزا ، قاسيا صارما ، لا يعرف شيئا غير عمله العسكرى ، ويستطيع أن يعاقب على أقل هفوة بالصيام على الخبز والماء** . وجاء المساء وأنا غارق فى هذه التأملات ، فقد كنا نسير بسرعة .. فسألت الحوذى : « هل الحصن بعيد ؟ »

- بل هو ذا ! .. لقد وصلنا !

فالتفت الى جميع الجهات ، وأنا اتوقع ان أرى فوهات مسددة ، وسورا ، وقلاعا .. ولكننى لم أر الا قرية صغيرة ، محاطة بحاجز من جذوع السنديان . ورأيت فى احدى الجهتين ثلاثة أو أربعة بيادر من العلف غطاها الثلج ، وفى الجهة الاخرى طاحونة مائلة الى الجانب ، متراخية الاجنحة فى كسل . **فسألت فى دهشة : « وأين الحصن ؟ » . فأجاب**

السائق ، وهو يشير الى القرية التى لم نلبث أن دخلناها : ((هو ذا الحصن !))

كان على مدخل القرية مدفع قديم من الصلب .. والشوارع ضيقة متعرجة ، والبيوت مجعدة ، سقوفها من قش !.. وأمرت السائق أن يذهب بى الى منزل آمر الموقع . فما هى الا لحظة حتى وقفت العربة أمام بيت خشبى ، مبنى على مرتفع غير بعيد من الكنيسة .

ولم يأت أحد لاستقبالى ، فدخلت الدهليز ، وفتحت الباب المؤدى الى الحجرة الأولى ، فرأيت عجوزا مقطوع الساق ، جالسا الى طاولة ، يرقع الكوع من بدلته العسكرية الخضراء بقطعة من نسيج ازرق ، فأمرته أن يستأذن لى بالدخول ، فقال : ((ادخل يابنى ، ان جماعتنا فى البيت !)) .. فدخلت . واذا أنا فى غرفة نظيفة ، مؤثثة على الطراز القديم ، فى ركن منها خزانة للأوانى ، وعلى أحد جدرانها علقت شهادة ضابط ذات اطار ، وعلى الجانب صور منقوشة نقشا سيئا ، تمثل الاستيلاء على كوسترين وأوتشاكوف ، ثم لوحة ((اختيار خطيبة)) ، ولوحة ((جنازة قطة)) .. والى جوار النافذة جلست امرأة ترتدى معطفا مبطنا بفراء ، وعلى رأسها وشاح ، آخذة بلف ((شلة)) من الخيطان ، أمسكها أمامها - بيديه المتباعدتين - رجل مسن قصير أعور ، يرتدى لباس ضابط .

وسألتنى المرأة دون أن تقطع عملها : ((ماذا تريد يابنى !)) . فأجبت بأننى - وقد عينت فى الحصن - جئت أقدم نفسى للسيد الضابط ، وفقا لما يقتضيه الواجب . والتفت - وأنا أقول هذا الكلام - نحو العجوز الأعور ، اظنى أنه هو الآمر . الا ان صاحبة البيت قاطعت كلامى المهيأ ، قائلة : ((لقد خرج ايفان كوزمتش .. ذهب يزور الأب جراسيم . ولكن سيان ،

فأنا امرأته ، وآمل ان نصبح اصدقاء . اجلس يابنى ! »

ثم نادت الخادم ، وامرتها ان تدعو الوكيل . وأدار العجوز القصير نحوى عينه الوحيدة ، ورمقتنى بنظرات مستطلعة . وقال : « هل تسمح لى ان أسألك : فى اية فرقة كانت خدمتك العسكرية ؟ » .. فأرضيت حبه للاستطلاع !

ـ وهل اجرؤ ان اسألك ، لماذا تركت الحرس ، وكيف صرت الى ثكنة فى الريف ؟

فأجبته بأن مشيئة رؤسائى كانت كذلك .. فأضاف السائل الذى لايكل ولا يمل : « ربما لأمور لاتتفق ومكانة ضابط فى الحرس ! » .. فقالت الآمرة : « كفى ثرثرة ! .. الا ترى ان الفتى قد وصل منذ هنيهة ؟ .. لاشك أنه ميت من التعب ، ولا يتسع وقته للاهتمام بك والاجابة على اسئلتك . الاحسن من هذا ، ان تزيد فى مد يديك الى أمام ! » . واستأنفت تقول ملتفة نحوى :

ـ وأنت يابنى ، لايحزنك انك ارسلت الى هذا المكان المنعزل .. لست الأول ولا الأخير .. ستتعود ! انظر الى « شفابرين الكساى ايفانوفتش » ! .. لقد نقل الى هنا منذ خمس سنين لقتله أحد الضباط . ذهب مع أحد الملازمين الى ظاهر المدينة ، واصطحب كل منهما سيفه ، وظلا يتضاربان الى ان بقر شفابرين بطن الملازم .. وكان ذلك بحضور شاهدين .. هذه هى الدنيا ، فماذا تريد ؟

وفى هذه اللحظة ، دخل الوكيل .. وهو قوزاقى شاب ، حسن الهندام . فقالت له الآمرة : « مكسيمتش ، ابحث عن مسكن لحضرة الضابط ، وليكن نظيفا ! »

ـ أمرك مطاع يافاسيليسا ييجوروفنا . مارأيك فى ان نسكن صاحب النبالة عند ايفان بوليائيف ؟

ـ أنت تهرف ياعزيزى .. ليس فى بيت بوليائيف مكان .

ثم ان بوليائيف قريبي ، وهو لاينسى ابدا اننا رؤساؤه .. لا ، الأفضل ان تقود حضرة الضابط .. ما أسمك يابني ؟

— بترو اندريفتش ..

— الأفضل ان تقود بترو اندريفتش الى بيت سيمون كوزوف .. ان هذا السافل قد ترك حصانه يطوف فى بستانى . هل كل شيء هادىء يامكسيمتش ؟

فأجاب القوزاقي : « كل شيء هادىء ، بحمد الله ، عدا ان العريف بروخوروف قد تشاجر بالحمام — امس — مع اوستينيا نيجولين ، على دلو من الماء الساخن » .

قالت الآمرة ملتفتة الى الضابط الأعور : « ايفان اجناتتش ، أحضر بروخوروف وأوستينيا ، وانظر ايهما المذنب وايهما البرىء ، وعاقبهما معا . وأنت يامكسيمتش ، تستطيع أن تذهب .. بترو اندريفتش ، سيدلك مكسيمتش على مسكنك ! »

فحييت الآمرة .. وقادنى الضابط الى دار (كوزوف) ، وهى قائمة على مرتفع فوق النهر فى آخر الحصن .

***

كانت اسرة « كوزوف » تشغل نصف البيت ، فوضعوا النصف الآخر تحت تصرفى ، وهو غرفة نظيفة ، يقسمها حاجز الى غرفتين . وجعل سافيليتش يعنى بترتيب الاشياء ، بينما اخذت أسرح النظر من خلال نافذة ضيقة .. كانت الفيافى الحزينة تمتد أمامى الى مدى البصر ، وبعض البيوت ترى من الجانب ، ودجاجات تهوم فى الشارع ، وامرأة عجوز واقفة على درجات باب البيت تنادى الخنازير — وفى يدها معلف — والخنازير تجيب نداءها بهمر ودى . فى بلد كهذا كتب على أن أقضى صباى ؟ .. وتملكنى سأم عميق ، فتركت مرصدى ،



ومضى الى سبيله .. وتابعنا نحن رحلتنا ..

(ص ٢٨)

ونمت دون عشاء ، رغم الحاح سافيليتش فى محاولة اقناعى بضرورة الطعام . فكان لاينفك يردد قائلا : « ياالهى ! انه لايريد أن يأكل شيئا ! .. ماعسى أن تقول سيدتى اذا وقع ابنها مريضا ؟ »

وما كدت ابدأ فى الصباح بارتداء ثيابى ، حتى فتح الباب ودخل ضابط شاب ، ليس بالطويل ، أغبر الوجه دميمه جدا ، على حيوية ونشاط .. فقال يخاطبنى بالفرنسية : « أعذرنى اذا أنا جئت أتعرف اليك بلا حرج ولا كلفة ! .. لقد علمت بوصولك أمس ، فاذا الرغبة فى ان ارى - اخيرا - وجه انسان ، تملك على مشاعرى ، فما استطعت أن أحبس نفسى عن المجىء . ستبرر سلوكى هذا بعد أن تقضى هنا بعض الوقت ! »

حزرت أنه الضابط الذى طرد من الحرس لأنه قاتل فى مبارزة . وسرعان ماتعارفنا .. ولم يكن بالغبى . وأن حديثه لمرح رشيق فكه .. وأخذ يصف - فى كثير من السخر اللاذع - أسرة الآمر ، وسكان المنطقة ، وهذا البلد الذى ساقنى اليه القدر . وكنت أضحك من اعماق قلبى ، عندما دخل ذو الساق المقطوع ، الذى كان يرقع بالأمس بدلته العسكرية فى مدخل بيت الآمر ، فدعانى باسم « فاسيليسا ييجوروفنا » الى طعام الغداء ، وعرض على « شفابرين » أن يصحبنى .

وحين اقتربنا من بيت الآمر ، رأينا - فى ساحة صغيرة - مايقرب من عشرين رجلا من مشوهى الحرب ، ذوى ضفائر طويلة ، قد انتظموا فى صف واحد . ورأينا الآمر واقفا امامهم ، وهو عجوز فارع القامة رشيق ، على رأسه طاقية ، ويرتدى ثوب المنزل . فلما رآنى اقبل علينا ، وقال لى بضع كلمات ودية ، ثم عاد الى تدريبه . فوقفنا ننظر اليه ، غير انه رجانا أن نمضى الى فاسيليسا ييجوروفنا ، قائلا انه سيتبعنا

بعد قليل. ثم أضاف: «ليس ها هنا مايستحق أن يرى !»

واستقبلتنا فاسيليسا ييجوروفنا ببساطة ومودة ، وعاملتنى معاملة من يعرفنى منذ زمان طويل ، وأخذ ذو الساق المقطوعة و « بالاشكا » ــ الخادم ــ يهيئان المائدة . وقالت الآمرة : « ان صاحبنا ايفان كوزمتش يقوم بالتدريب .. يا بالاشكا . قولى لسيدك ان الطعام قد هيىء .. ولكن أين ماشا ؟ »

وفى هذه اللحظة ، دخلت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، مدورة الوجه ، وردية الوجنتين ، شعرها الأشقر مسدل الى وراء .. ولم تعجبنى كثيرا فى أول الأمر .. فنظرت اليها فى نوع من الادعاء . وكان شفابرين قد وصف لى « ماشا » ــ ابنة الضابط الرئيس ــ على انها فتاة غبية حمقاء !

وجلست « ماريا ايفانوفنا » (١) فى ركن من الفرفة ، وأخذت تخيط . وفى أثناء ذلك ، صب الحساء فى الصحون . فلما رأت فاسيليسا ييجوروفنا أن زوجها لم يصل بعد ، ارسلت «بالاشكا» مرة أخرى تستحثه على المجىء ، قائلة : « قولى لسيدك ان الضيوف ينتظرون ، وان الحساء يوشك أن يبرد . الحمدلله على أن التدريب ليس بالمستعجل ، فالوقت أمامه طويل لبح صوته ! »

وما هى الا لحظة ، حتى ظهر الضابط الرئيس ، يتبعه الضابط الأعور . فقالت له امرأته : « ما هذا يا عزيزى ؟.. ان الطعام على المائدة منذ مدة طويلة ، ولم نتوصل الى احضارك الا فى هذه اللحظة ! » . فأجاب ايفان كوزمتش : « ولكنك تعلمين يا فاسيليسا يحوروفنا أننى أقوم بواجبى ، وأدرب جنودى الشجعان ! » . فردت الآمرة : « كفى ، كفى

---

(١) الاسم الكامل لابنة آمر الحصن .

.. هذا كلام ! .. أن جنودك لن يتوصلوا الى تعلم الخدمة العسكرية ، وانت نفسك لاتفقه منها شيئا . خير لك أن تبقى فى البيت ، وأن تصلى ! .. ايها الضيوف نرجوكم ان تشرفونا ! »

***

واذ جلسنا الى المائدة ، لم تنقطع فاسيليسا عن الثرثرة لحظة واحدة ، واغرقتنى بسيل من الأسئلة : من هما أبواى ، هل هما على قيد الحياة ، أين يقطنان ، ماهى حالتهما المالية ؟ .. فلما علمت ان أبى يملك ثلاثمائة نفسا ، قالت : « مازال فى الدنيا أناس اغنياء ! .. اما نحن يابنى ، فلا نملك الا خادمة واحدة ، هى البنت بالاشكا .. على أننا نعيش حياة لابأس بها والحمدلله ! .. ليس هناك الا شىء واحد يقلقنا ، هو أن ماشا فى سن الزواج ، وماعسى نستطيع أن نقدم لها مهرا ؟ .. مشطا ، ومقشة ، ومبلغا ضئيلا قدره ثلاثة كوبيكات ، أى مايكفى للذهاب الى الحمام ؟ .. هذا اذا وجدنا لها عريسا لائقا ، و الا ظلت عانسا الى آخر أيامها ! »

نظرت الى ماريا ، فاذا هى قد تضرجت بحمرة شديدة ، وهطلت من عينيها دموع على الصحن . فأشفقت عليها ، وسارعت الى تغيير مجرى الحديث .

قلت فى غير مناسبة : « سمعت أن الباشكير كانوا ينوون مهاجمة حصنكم » . فسألنى ايفان كوزمتش يقول : « أين سمعت هذا يابنى ؟ » . فأجبت : « ذكر لى فى أورنبورج » . فأجاب الآمر : « هذا خطأ ، اننا لا نرى شيئا فى هذه المنطقة منذ مدة طويلة .. لقد عرفنا كيف نخيف الباشكير ، وأما الكرغيز فقد أعطيناهم درسا ، فلن يجرأوا أن يهاجمونا بعد الآن .. واذا حدث هذا يوما ، فلسوف استقبلهم استقبالا

يشيبهم الى رشدهم لعشر سنين على الأقل ! »

فقلت متجها الى امرأته : «ألا تخافين من الاقامة فى حصن تهدده هذه الأخطار ؟ » . فاجابت : « لقد تعودت يابنى .. حين أوفدنا الى هنا منذ عشرين سنة ، كنت أرهب هؤلاء الكفرة رهبة فظيعة.. كان يكفينى ان المحطاقياتهم المصنوعة من جلد الثعلب ، وأن أسمع زئيرهم ، حتى يخفق قلبى خفقانا شديدا ! .. أما الآن ، فقد تعودت حتى صرت لا أتحرك من مكانى اذا جاء أحد يقول ان هؤلاء الجناة يحومون حول البلدة ! » .. فقال شفابرين فى لهجة جدية الغاية : « ان **فاسيليسا ييجوروفنا سيدة شجاعة . يشهد بذلك ايفان كوزمتش ! »» . فقال ايفان كوزمتش : « طبعا ، طبعا ! .. لاترف لها عين ! »**

فسألتها : «وهل ماريا ايفانوفنا فى مثل شجاعتك ؟ » . فاجابت الأم : « فى مثل شجاعتى ؟ .. لا ، لا .. ان ماشا شديدة الفزع. انها — حتىهذا اليوم — لم تستطع أنتسمع طلقة بندقية دون أن ترتعد . وحين أمر ايفان كوزمتش منذ سنتين — فى الاحتفال بعيد ميلادى — باطلاق نيران المدفع ، كادت تموت جزعا .. ومنذ ذلك الحين أصبحنا لانقارب المدفع اللعين أبدا ! »

ونهضنا عن المائدة ، فمضى الضابط الرئيس مع زوجته ليناما قليلا ، وذهبت أنا مع شفابرين أقضى فى بيته بقية النهار .

(٤) مبارزة من اجل فتاة !

« لك ما تشاء ، هيا استعد !
« سترى كيف ابقر جلدك ! » ـ كنياجنين

• **انقضت** بضعة أسابيع .. وبدأت أشعر أن اقامتى فى (بيلوجورسكايا) ليست محتملة فحسب ، بل مليئة كذلك بالمتعة والسرور . كانت أسرة الآمر تستقبلنى كأننى أحد أقربائها .. وكان الزوج وزوجه شخصان محترمان : الزوج « ايفان كوزمتش » ابن جندى بسيط ، وقد توصل بجده الى رتبة ضابط .. وهو ضئيل الثقافة الا أنه طيب وشريف ، و ـ بطبيعته ـ ضعيف الشخصية ، فكانت تقوده امرأته. وكانت «فاسيليسا ييجوروفنا» تنظر الى الخدمة العسكرية نظرتها الى أعمال بيتها ، وتدير الحصن كما لو كان الأمر أمر منزلها الشخصى. **اما ماريا ايفانوفنا ، فان نفرتها منى مالبثت أن زالت ، وتوطد بيننا التعارف ، فرأيت أنها فتاة عاقلة .. بل وعاطفية !**

وازداد تعلقى بهذه الأسرة الشريفة شيئا بعد شىء ، وفى عدادها « ايفان آجناتتش » ، الملازم الأعور الذى ذكر لى « شفابرين » أنه عشيق « فاسيليسا ييجوروفنا » .. **وهى تهمة باطلة ليس لها ظل من حقيقة ، الا أن شفابرين لم يكن يزعجه أن يلفق مثل هذه الأقاويل البسيطة ! ..**

ورفعت الى رتبة ضابط .. ولم تكن الخدمة مرهقة البتة ، فليس فى هذا الحصن ـ الذى يحرسه الله ـ تفتيش ولاتدريب ولا أعمال حراسة. كان الآمر يدرب الجنود قليلا ، من حين الى حين ، بدافع من نفسه . الا أنه لم يكن قد توصل بعد الى أن يعلم جميع جنوده تمييز اليد اليسرى من اليد

اليمنى ، رغم أن بعضهم كان يصلب قبل أن يدور حتى لايخطىء ! . . وكان شفابرين يملك عددا من الكتب الفرنسية ، فأخذت اقرأ . . وما لبثت أن شعرت بميل الى الأدب ، فكنت اقضى الصباح اترجم ، وأنظم فى بعض الأحيان شعرا . وكنت فى كل الايام ــ تقريبا ــ أتناول طعام الغداء على مائدة الآمر ، وأقضى فى بيته بقية النهار . وكان الأب « جراسيم » يأتى لقضاء السهرة فى بعض الأحيان ، تصحبه زوجته « آكولينا بامفيلوفنا » ، وهى اول من كان يحمل انباء المنطقة ويذيعها . وطبيعى أننى كنت ألقى « الكسى ايفانوفتش شفابرين » فى كل يوم ، الا أننى صرت أزداد برما بحديثه ، يوما بعد يوم ، وأصبحت أرى سخرياته من أسرة الآمر فى غير محلها ، لاسيما ملاحظاته الهازئة بصدد « ماريا ايفانوفنا » . .

ولم يكن فى الحصن غير هذا المجتمع ، الا انني كنت لا أطمع فى أحسن منه .

***

ولم يثر « الباشكير » ، رغم نبوءات القائد اللواء . وكان الهدوء مهيمنا على المنطقة بأسرها ، الا ان السلام قد انقطع فجأة بخصومة داخلية :

ذكرت لكم شيئا عن مشاغلى الأدبية . . وقد تبين أن هذه القرزمات (١) كانت مرضية فى حينها ، حتى أن الكسندر بتروفتش سوماروكوف قد تحدث عنها ــ بعد بضع سنين ــ فى كثير من الثناء والتقريظ . واستطعت ــ فى ذات يوم ــ ان أؤلف نشيدا ، وكنت راضيا عنه كل الرضى . . وانتم تعلمون ان الشعراء يبحثون دائما عن مستمع ينشدونه

---

(١) يبدو ان المقصود بهذا المصطلح «المحاولات» أو «المقالات» .

قصائدهم ، زاعمين أنهم يسألونه بعض النصائح . وهكذا نسخت قصيدتى ، وحملتها الى شفابرين ، وهو الشخص الوحيد الذى يستطيع فى هذا الحصن ان يقدر مزايا هذا النوع من الانتاج . ثم قرأتها عليه ، بعد تمهيد مناسب :

« أود .. ياحبيبتى أن أنساك .. بالابتعاد عنك ،
« وأن لا أعود أفكر فيك ،
« أن أكون حرا ، ولكن ..
« يا لهاتين العينين ، تطلان على .. فى كل لحظة ،
« فاذا روحى مضطربة .. لايعرف السلام اليها سبيلا .
« ليتك تعلمين ما أعانى من برح ..
« آه يا ماشا ! .. رفقا بى ،
« يا من أسرت قلبى ! »

ـ ما رايك ؟

طرحت على شفابرين هذا السؤال ، وأنا أنتظر الثناء .. على انه شىء من حقى . الا أن شفابرين ، وهو السمح المتساهل فى العادة ، أعلن بلهجة قاطعة ـ على أسف منى ـ أن القصيدة لاقيمة لها البتة . فقلت ، وانا اخفى انزعاجى : « لماذا ؟ » .. قال : « لأن مثل هذه الأشعار خليقة بأستاذى المرحوم فاسيلى كيريليتش ترودياكوفسكى (١) ، وهى تذكرنى بثنائياته الغزلية » .

ثم تناول الدفتر من يدى ، وأخذ يجرح كل قصيدة من قصائدى ، ويسخر منها سخرا لاذعا ، لا رحمة فيه ولا شفقة . فلم أستطع أن اكظم غيظى ، فانتزعت الدفتر من يده ، معلنا اننى لن أطلعه فى حياتى على شىء مما أنظم ..

---

(١) أحد اوائل الشعراء الروس (١٧٠٣ ـ ١٧٦٩) ، وقد أصبح اسمه يعنى الشاعر الاخرق الدعى .

واضحكه هـذا التهديد . فقال : « سنرى هل تلتزم هذا الكلام ! .. ان حاجة الشعراء الى مستمع ، كحاجة ايفان كوزمتش الى ابريق من « الفودكا » قبل الطعام . ثم من هى ماشا هذه التى تبوح لها بغرامك ، وتبثها شجونك وآلامك ؟ لعلها ماريا ايفانوفنا ؟ »

فأجبت وانا اقطب حاجبى : « هذا لايعنيك ! .. ماطلبت رايك ، ولا سألتك أن تحزر من هى ماشا .. هـذه ! » . فقال وقد ازداد حنقى :

ـ على رسلك ايها الشاعر الطموح ، والعاشق المتواضع ! .. اليك هذه النصيحة يسوقها صديق مخلص : اذا أردت أن تظفر بها ، فتوسل بغير القصائد !

ـ ماذا تعنى بهذا أيها السيد ؟ .. أوضح !

ـ بكل سرور !.. أعنى أنك اذا اشتهيت أن تزورك «ماشا ميرونوفا» عند المغيب ، فأن قرطا تهديه اليها ، أنجع فى ذلك من قصائدك الغزلية الرقيقة !

وغلى الدم فى عروقى .. وسألته ، وانا لا اكاد أستطيع كظم غيظى : « لماذا ترى فيها هذا الراى ؟ » . فأجاب وهو يبتسم ابتسامة خبيثة : « لأننى أعرفها بالتجربة ! » .. فصرخت فى حنق شديد : « كاذب .. وقح ! »

فامتقع لون شفابرين . وقال وهو يشد على ذراعى : «لن يمر هذا الأمر بسلام . اننى أدعوك الى المبارزة ، فأرجو أن تستجيب للدعوة ! »

ـ كما تشاء ، وفى أى وقت تشاء !

قلت ذلك وانا أشعر بسرور كبير .. كنت على استعداد ـ فى هذه اللحظة ـ لأن أمزقه اربا .

***

ومضيت فورا الى «ايفان اجناتتش» ، فرأيت بيده ابرة، لأن الآمر كلفه بنظم حبات الكمأة ، مئونة للشتاء (١) . فقال حين رآني : « آه ، بترو اندريفتش ! .. أهلا وسهلا ، هل أستطيع أن أعرف سبب تشريفك اياى بالزيارة ؟» . فذكرت له - ببضع كلمات - انني تشاجرت منذ هنيهة مع الكسى ايفانتش ، وانني أرجوه أن يكون ، هو ايفان اجناتتش ، شاهدى فى المبارزة . . فأصغى الى كلامى بانتباه شديد ، وهو يحدق فى بعينه الوحيدة . وقال مجمجما :

- تريد أن تقول انك تنوى أن تغمد سيفك فى جسمه ، وانك تريد أن أحضر هذا بصفتى شاهدا ؟ .. أهذا ما أردت أن تقوله ، ان جاز لى أن أطرح هذا السؤال ؟

- نعم .

- اسمع يابترو اندريفتش ، ما هذا الكلام الفارغ ؟ .. لقد تشاجرت مع الكسى ايفانتش ، فيالها من فاجعة ! .. ان الألفاظ يابنى لاتقتل ! .. **ان كان قد شتمك فاشتمه ! ..وان كان قد صفعك على وجهك ، فاصفعه على أذنيه مثنى وثلاث !** .. ثم تفترقان . وواجبنا نحن بعد ذلك أن نصلح بينكما ! .. أما أن يقتل المرء قريبه ، فاللهم لا ! .. ثم ان الأمر يهون اذا انتصرت انت . اننى لا أحب «الكسى ايفانتش» هذا ، عفا الله عنه ! .. ولكن أية فاجعة تمنى بها ، اذا انتصر هو عليك ، واغمد سيفه فيك ؟ .. من ذا الذى يكون قد غرر به عندئذ ، ان جاز لى أن أسأل هذا السؤال ؟

ولم يستطع منطق الملازم الطيب ان يزعزع ما عزمت عليه ، فأصررت على رأيى . وقال ايفان اجناتتش : « لك

---

(١) الكماة نبات فطرى يشبه عيش الغراب ، يجفف وينظم فى عقود - كما يفعل بالبامياء عندنا - ليستعمل فى الشتاء .

ماتشاء . افعل مايبدو لك ! . . ولكن ما حاجتك الى شاهد ؟ . . وبم يفيدك هذا ؟ . . يا لها من معركة عجيبة ! شيء جميل ! . . ان جاز لى ان اقول ذلك ! . . لقد رأيت معارك أخرى كثيرة ، بحمدالله . . تقاتلت مع الأتراك والسويديين ! »

وحاولت أن أوضح له وظائف الشاهد بكل الوسائل ، الا ان ايفان اجناتتش لم يستطع ان يفهمنى . . وقال أخيرا : « اذا أردت أن أتدخل فى هذا الأمر ، فلعل الأحسن أن أمضى الى ايفان كوزمتش ، اخبره بأن ثمة امرا مخالفا لمصالح الدولة يدبر فى هذا المكان ، ولاشك ان حضرة الآمر سيتخذ عندئذ ماينبغى اتخاذه من اجراءات » .

فخفت ، وتوسلت اليه ان لايخبر الآمر بذلك . ولم استطع اقناعه الا فى كثير من العناء ، فقطع على نفسه عهدا بأن لايخبر الآمر ، وقررت أن أدعه وشأنه .

وقضيت السهرة ، على عادتى ، فى بيت الآمر ، حتى لا اثير أى ارتياب ، وحتى اتحاشى الأسئلة الفاضحة . . **وحاولت ان اظهر مرحا طليقا ، ولكنى اعترف باننى لم أستطع أبدا ان أكون هـادئا ، ذلك الهـدوء الذى يعتـز به معظم الذين يكونون فى مثل حالتى .**

وكنت فى ذلك المساء أفيض حبا وحنانا . وأعجبتنى « ماريا ايفانوفنا » أكثر من أى وقت مضى . ثم تصورت أن لقاءنا هذا المساء قد يكون اللقاء الأخير ، فأضفى عليها هذا كثيرا من الفتنة المؤثرة . وجاء شفابرين ، فانتحيت به جانبا أبلغه نتائج حديثى مع ايفان اجناتتش ، فقال فى جفاف وخشونة : « ما حاجتنا الى شهود ؟ . . سنستغنى عن الشهود ! »

حزمنا أمرنا ، واتفقنا على أن تكون المبارزة فى صباح الغد ، قبل الساعة السابعة ، وراء البيادر غير بعيد عن الحصن .

وقد اصطنعنا أثناء الحديث هيئة ودية جدا ، حتى أن « ايفان اجناتتش » — حين رآنا — لم يملك أن يمنع نفسه عن الهتاف مسرورا .. وقال وقد فاض وجهه بشرا : « مرحى! لتسوية سيئة خير من مبارزة حسنة ! .. ما فائدة الشرف حين يبقر البطن ! »

فقالت الآمرة وهى تجر الخرائط الى ركن من الغرفة : « ماذا تقول يا ايفان اجناتتش ؟ .. اننى لم أفهم » .

فلما رآنى ايفان اجناتتش أجهم وجهى ، تذكر وعده ، فاضطرب ولم يعرف بم يجيب . فهب شفابرين الى نجدته قائلا : « **ان ايفان اجناتتش يهنئنا على المصالحة** » .

— ومع من تشاجرت يابنى ؟

— **لقد تشاجرنا — انا وبترو اندريفتش — مشاجرة عنيفة .**

— لماذا ؟

— أوه ، **بسبب تافه ، بسبب أغنية ، يا فاسيليسا ييجوروفنا !**

— ياله من سبب وجيه للمشاجرة ! .. اغنية ! ..وكيف حدث ذلك ؟

— لقد ألف بترو اندريفتش منذ مدة قصيرة أغنية ، وأنشدنى اياها هذا الصباح ، فأخذت انا ادندن أغنيتى المفضلة :

« يا ابنة الضابط الرئيس ..

« لاتتجولى عند منتصف الليل ! »

« فلم يرق هذا لبترو اندريفتش ، فغضب واحمر وجهه . الا أنه لم يلبث ان فهم ان كل انسان حر فى ان يغنى مايحلو له غناؤه . ووقف الأمر عند هذا الحد ! »

وكادت وقاحة شفابرين أن تخرجنى عن تجلدى وهدوئى ،

ولكن احدا غيرى لم يفهم غمزاته الخبيثة ، او ـ على الأقل ـ لم ينتبه اليها أحد . وانتقل الحديث من الأغانى الى الشعراء بوجه عام ، فذكر الآمر أنهم جميعا أناس طائشون سكيرون ، ونصحنى باسم الصداقة أن أدع الشعر ، فالشعر لايتفق مع الخدمة العسكرية ولا يفضى الى خير .

وكان وجود شفابرين ثقيلا على نفسى لايطاق ، فاستأذنت الآمر وأسرته بالذهاب . وعدت الى منزلى ، فتفقدت سيفى ، وفحصت حده ، ثم نمت بعد أن أمرت سافيليتش بأن يوقظنى قبل الساعة السابعة .

***

وفى الساعة المعينة من الغداة ، كنت وراء البيادر . وماهى الا برهة وجيزة حتى ظهر شفابرين . فقال : « لنسرع ، قبل ان يأتى أحد ! »

فخلع كل منا بدلته العسكرية . وما كدنا ننتضى سيفينا حتى رأينا ايفان اجناتتش يظهر من وراء أحد البيادر ، يصحبه خمسة جنود من مشوهى الحرب ، ثم يأمرنا بأن نتبعه الى منزل الآمر . كان لابد لنا من أن نطيع ، فسرنا يحيط بنا الجنود ، ويتقدمنا ايفان اجناتتش يسير بخطى الظافر ، وقد اكتسى وجهه هيئة جادة وقور .

ووصلنا الى بيت الآمر ، ففتح ايفان اجناتتش الباب ، وقال بصوت فخم : « ها هما ! » . فأقبلت علينا فاسيليسا ييجوروفنا تقول : « ياالهى ! .. ماهذا ؟ أجريمة قتل فى حصننا ؟ .. ايفان كوزمتش ، اسجنهما حالا ! .. بترو اندريفتش ، الكسى ايفانتش ، الى بسيفيكما فورا ! .. هات سيفك ، هات سيفك ! .. بالاشكا ، خذى هذين السيفين الى المستودع .. بترو اندريفتش ، ماكنت اتوقع منك هذا ! ..

انه يليق بالكسى ايفانتش ، الذى طرد من الحرس لارتكابه جريمة قتل ، وهو ملحد لايؤمن بالله .. ولكن أنت ؟ .. هل تريد أن تقتفى أثره ؟ »

وبدا على ايفان كوزمتش أنه يوافق زوجته كل الموافقة . اذ قال : « فاسيليسا ييجوروفنا على حق ! .. ان القانون العسكرى يمنع المبارزات منعا باتا » .. وفى أثناء ذلك ، كانت بالاشكا قد أخذت السيفين وحملتهما الى المستودع . ولم استطع ان احبس ضحكى ، الا أن شفابرين احتفظ بجده ، وقال يخاطب الآمرة فى جفاف : « رغم ما أكنه لك من احترام ، فاننى لا استطيع أن اعفى نفسى من لفت نظرك الى أنك مخطئة فى الاهتمام بهذا الامر . دعى ايفان كوزمتش يتصرف على النحو الذى يراه ، فالقضية لاتعنى أحدا غيره ، وليس لأحد ان يتدخل فيها سواه ! »

ـ ولكنك تعلم يابنى ان الزوج والزوجة جسم واحد ، وروح واحد ؟ .. وأنت يا ايفان كوزمتش ، ماذا تنتظر ؟ .. هيا اسجن كلا منهما فى مكان ، وليصوما ـ الا عن الخبز والماء ـ الى ان يثوبا الى رشدهما ، فيفرض عليهما الأب جراسيم الكفارة ، فيطلبا عفو الله ومغفرة البشر !

لم يعرف ايفان كوزمتش بم يجيب .. وكانت « ماريا ايفانوفنا » شاحبة الوجه جدا .. ثم راق الجو شيئا بعد شىء ، وهدأت الآمرة ، وأجبرتنا على أن نتعانق ، وردت الينا بالاشكا السيفين ، فخرجنا من بيت الآمر متصالحين فى الظاهر . وصحبنا ايفان اجناتتش . فقلت له بصوت خشن : « الا تستحى ؟ .. تشى بنا الى الآمر ، بعد أن قطعت على نفسك عهدا بأن تسكت ؟ » . فأجاب قائلا : « اقسم اننى لم اقل لايفان كوزمتش شيئا ، ولكن فاسيليسا ييجوروفنا أكرهتنى

اكراهـا على مكاشـفتها بالأمر ، وهى التى اتخـذت هـذه الاجراءات دون أن ترجع الى الآمر . على أننى احمدالله أن الأمر انتهى على هذا النحو ! »

قال هـذا ، ثم دخل الى بيته ، وتركنا وحـدنا . فقلت لشفابرين : «لايمكن أن يقف الأمر عند هذا الحد !» . فأجاب : « طبعا .. ستدفع من دمك ثمن الاهانة التى وجهتها الى .. ولكن اغلب الظن أنهم سيراقبوننا ، فلا بد أن نخادعهم بضعة أيام . عم مساء ! »

وافترقنا كأن لم يحدث شيء . فلما عدت الى بيت الآمر ، جلست على عادتى الى جانب « ماريا ايفانوفنا » . ولم يكن ايفان كوزمتش فى البيت ، وكانت فاسيليسا ييجوروفنا مشـغولة باعمال المنزل ، فاخذنا نتحادث بصوت خافت ، فلامتنى «ماريا ايفانوفنا» ـ لوما رقيقا ـ على المخاوف التى سـببتها للجميع بتشـاجرى مع شفابرين . وقالت : « كاد يغمى على حين بلغنى أنكما تنويان المبارزة . ماأعجب الرجال ، انهم مستعدون ـ بسبب كلمة قد ينسونها بعد أسبوع ـ لأن يقتل بعضهم بعضا ، فيضحوا بحياتهم ، وبسعادة أولئك الذين .. على أننى واثقة من انك لست الذى أثار المشاجرة .. أعتقد ان الكسى ايفانتش هو المذنب ! »

ـ لماذا تظنين هذا يا ماريا ايفانوفنا ؟

ـ لأنه .. لا يكف عن الهزء والسخرية .. اننى لا احب الكسى ايفانتش . انني أكرهه . والغريب اننى اخشى دائما ان لا أعجبه .. انه ليثيرنى أن لا أنال اعجابه !

ـ وهل تعتقدين يا ماريا ايفانوفنا ، انك تعجبينه ؟

قالت : « اعتقد انني اعجبه » . فسألتها : «من اين جاءك هذا الاعتقاد ؟ »

ــ لأنه طلب يدى .

ــ طلب يدك ؟ متى ؟

ــ فى السنة الماضية ، قبل وصولك بشهرين ..

ــ ورفضت ؟

ــ كما ترى ! .. صحيح ان الكسى ايفانتش رجل ذكى ، وانه ينتمى الى أسرة محترمة ، ويملك ثروة طائلة ، ولكن يكفى أن أتصور أننى ساقبله امام الناس فى الكنيسة ، حتى أقول : لا ، لا .. مستحيل ، مستحيل !

هكذا فتحت كلمات ماريا ايفانوفنا عينى ، ووضحت لى كثيرا من الأمور . فهمت لماذا يصر شفابرين على الحط من شأنها فى مثل هذا الخبث وهذه الوقاحة .. لعله ادرك ما بيننا من عاطفة متبادلة .. أكان يريد أن يفرق بيننا ؟ .. وبدت لى الكلمات ــ التى اثارت المشاجرة ــ أكثر دناءة ، لأننى أصبحت لا أرى فيها مجرد سخرية فظة غليظة ، بل تهمة باطلة عن سابق تصور وتصميم . وازدادت رغبتى فى معاقبة هذا الوقح ، فأخذت انتظر الفرصة المناسبة بصبر فارغ .

ولم يطل انتظارى .. ففى الغداة ، بينما كنت أؤلف قصيدة رثائية ، وأقضم قلمى باحثا عن قافية ، قرع شفابرين نافذة غرفتى ، فوضعت القلم ، وحملت سيفى ، وأدركته فى الشارع . قال : ((علام الانتظار ؟ ليس يراقبنا أحد .. لنهبط الى النهر ، فلن يزعجنا أحد هناك !)) . فسرت وراءه .. وبعد ان هبطنا منحدرا وعرا ، وقفنا على ضفة النهر ، واستللنا السلاح . وكان شفابرين احذق منى ، ولكننى كنت

اقوى منه واشجع . واستفدت من دروس فى المسايفة (١) اعطانى اياها مسيو « بوبريه » الذى كان فى سابق أيامه جنديا . ولم يتوقع شفابرين أن أكون خصما خطرا الى الحد .

وظللنا نتبارز مدة طويلة ، دون ان يصب احد منا الآخر بأذى . فلما لاحظت أخيرا انه بدأ يضعف ، أخذت أهاجمه بعنف ، حتى صار على شفا النهر ، فاذا أنا أسمع صوتا ينادينى فجأة بصوت عال . فالتفت فرأيت سافيليتش يعدو هابطا المنحدر .. وفى هذه اللحظة ، احسست بألم قوى فى الكتف الأيمن ، ثم سقطت مغشيا علي !

---

(١) يقصد المبارزة بالسيف .

(٥) واخيرا .. عرفت الحب !

« ايه ايتها الصبية الجميلة !
« لا تتزوجى قبل الاوان ..
« استنصحى اباك وامك .. والأسرة كلها !
« كونى عاقلة ، واجمعى مهرا ..
« قبل كل شيء ! » - اغنية شعبية

• **حين** أفقت من اغمائى ، ظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أستجمع ذكرياتى ، ولا ان أفهم ما حدث لى .. رأيتنى مضطجعا فى غرفة لا أعرفها . وكنت أشعر بضعف شديد . ورأيت سافيليتش واقفا أمامى وقد امسك بيده شمعة . ورأيت أحد الناس يفك الأضمدة التى تشد كتفى وصدرى ، يفكها فى كثير من الحذر . واتضحت أفكارى شيئا بعد شيء ، فتذكرت المبارزة ، وادركت أننى جرحت . وفى هذه اللحظة سمعت الباب يفتح .. ودمدم صوت يقول : « كيف حاله الآن ؟ »

وارتجفت حين سمعت هذا الصوت.. وأجاب سافيليتش وهو يطلق من صدره زفرة حارة : « مازال كما كان .. انه فاقد وعيه منذ خمسة أيام » .

وحاولت أن التفت ، ولكنى لم استطع . فقلت فى جهد ومشقة : «أين انا ؟..من هنا؟» . **فاقتربت ماريا ايفانوفنا من السرير ، وانحنت على تسالنى : « كيف ترى نفسك الآن »** . فأجبت بصوت ضعيف : «الحمدلله ! .. اهذه انت يا ماريا ايفانوفنا . قولى لى .. ! »

ولم استطع أن اتم كلامى ، فهتف سافيليتش ، وقد ظهرت فى وجهه آيات الفرح : « عاد اليه شعوره ، عاد اليه شعوره .. حمدا لك يارب ، آه ! .. يابترو اندريفتش ،

لشد ما اخفتني .. خمسة أيام متواصلة ! »

واعتقدت ماريا ايفانوفنا ان عليها ان تقطع حماسته ، فقالت متجهة الى سافيليتش : « لاتكلمه كثيرا ياسافيليتش . انه مازال ضعيفا جدا ! » . ثم خرجت وهى تغلق الباب بلطف .

وزحمت رأسي الأفكار .. لقد كنت اذن فى منزل الآمر ، وجاءت ماريا ايفانوفنا تعودني ! .. وأردت أن أطرح على سافيليتش بعض الأسئلة ، الا ان العجوز أخذ يهز رأسه ، وسد أذنيه ، فأغمضت عيني آسفا . وما لبثت أن نمت . فلما استيقظت ، ناديت سافيليتش ، ولكن ماريا ايفانوفنا هى التى جاءت تلبى ندائى . وحيانى صوتها الملائكى .. ولا استطيع ان اعبر عن شعور الفرح الذى تملكنى فى هذه اللحظة . وتناولت يدها ابللها بدموع الحنان ، فلم تسحب ماريا يدها . وفجأة لامست شفتاها خدى ، فأحسست قبلتها غضة دافئة معا .. وسرت فى جسمي كله رعدة .. وقلت لها :

ـ عزيزتى ماريا ايفانوفنا ، ياذات القلب النبيل .. هلا وافقت على ان تكونى زوجتى ، فأكون اسعد انسان على وجه الارض !

وكأنما ثابت الى رشدها فقالت وهى تسحب يدها : « كن هادئا ، ارجوك ! .. انك مازلت فى خطر ، وقد ينكأ جرحك ، فحافظ على نفسك ، ولو من اجلى ! » .. قالت ذلك ، ثم خرجت . وتركتنى فى نوع من النشوة أشبه بالوجد . احيتنى السعادة .. انها تحبنى ، ستكون زوجتى ! .. وملكت على هذه الفكرة نفسى كلها !

***

أخذت صحتى تتحسن منذ تلك اللحظة . وكان حلاق الفوج هو الذى يقوم على معالجتى ، فلم يكن فى الحصن طبيب آخر غيره . واحمدالله على انه لم يعقد الامور .. على ان شبابى قد عجل شفائى . وكانت أسرة الآمر كلها تعنى بى . واصبحت «ماريا ايفانوفنا» لاتتركنى أبدا .وكان طبيعيا أن أنتهز أول فرصة مناسبة ، فأفاتحها فى الأمر مرة أخرى ، طالبا يدها .. **وهكذا فعلت ، فأصغت ماريا ايفانوفنا الى كلامى فى صبر أشد من صبرى ، ثم اعترفت لى بحبها دون مواربة** ، واضافت الى ذلك أن أبويها يسرهما أن يرياها سعيدة .. ثم أردفت تقول : « ولكن فكر فى الأمر .. الا تعتقد أن أبويك قد يعارضان ؟ »

وأطرقت أفكر .. ما كنت أشك أبدا فى أن أمى توافق ، ولكننى تصورت — وأنا اعرف طبع أبى واعرف نظرته الى الأمور — أن حبى لن يؤثر فيه كثيرا ، وانه سيعده نزوة من نزوات الشباب . واعترفت لماريا ايفانوفنا بهذا فى صراحة تامة ، وقررت — مع ذلك — أن أكتب الى ابى طالبا أن يوافق على زواجى وأن يباركه ، مستعينا فى ذلك بكل ما أوتيته من بلاغة وقوة حجة . وأطلعت « ماريا ايفانوفنا » على هذه الرسالة ، فوجدتها مؤثرة مقنعة ، حتى انها لم تشك فى أن أبى سيوافق .. **لقد استسلمت للعاطفة الرقيقة التى يمليها عليها قلبها ، ولكل ما فى الشباب والحب من ثقة ورجاء !**

وتصالحت مع شفابرين منذ الأيام الأولى من شفائى . ووبخنى ايفان كوزمتش على اقترافى ذنب المبارزة قائلا : «كان ينبغى أن أسجنك يابترو اندريفتش ، لولا انك قد عوقبت العقاب الذى تستحقه . أما الكسى ايفانتش فهو الآن سجين فى مخزن المئونة ، وسيفه محجوز لدى فاسيليسا ييجوروفنا ، عسى أن يفكر ويندم على ما اقترفت يداه ! »

وكنت اسعد من ان احمل لخصمى حقدا أو ضغينة ، فتشفعت له ، ووافق الآمر الطيب القلب ، بعد ان استشار زوجته ، على ان يطلق سراحه . وجاء شفابرين يعبر لى عن عميق أسفه على ما وقع بيننا ، واعترف بأنه هو المخطىء ، وسألنى ان أنسى الماضى . وأنا امرؤ غير حقود أبدا ، فغفرت له المشاجرة والجرح جميعا .. **غفرتهما صادقا كل الصدق ، لأننى عزوت الكلمات السيئة التى قالها فى حق « ماريا ايفانوفنا » ، الى ما يشعر به العاشق من حقد حين يصد ، وانتحلت له الأعذار فى كرم وسخاء !**

وما لبثت أن عوفيت حتى أصبحت قادرا على ان أعود الى بيتى . ورحت انتظر جواب الرسالة بصبر فارغ ، دون أن اجرؤ على كبير رجاء ، محاولا أن أخنق ما يقوم فى نفسى من تطير حزين . ولم اكن قد صارحت « فاسيليسا ييجوروفنا » وزوجها فى الأمر ، الا أن طلبى ماكان له أن يفاجئهما ، لأننا ــ انا وماريا ــ لم نكن نتخفى عنهما ، وكنا على يقين من موافقتهما قبل أن نطلبها .

وفى ذات صباح ، دخل على سافيليتش يحمل رسالة بيده ، فسارعت أتناولها بنوع من الرعب . ورأيت العنوان مكتوبا بخط أبى ، فتهيأت لأمر خطير . ذلك أن امى هى التى تكتب الى عادة ، أما أبى فيكتفى باضافة بضعة أسطر فى آخر الصفحة .. وظللت ــ مدة طويلة ــ اقرأ العنوان الفخم ، دون أن اجرؤ على فض الرسالة :

« الى ابنى بترو اندريفتش جرينيف
فى حصن بيلوجورسكا ــ اقليم اورنبورج »

كنت احاول أن أرى ــ فى الخط ــ الحالة النفسية التى كان أبى فيها حين كتب هذا العنوان . وقررت اخيرا أن أفض

الرسالة . . ثم أيقنت منذ قراءة الأسطر الأولى أن الحال على أسوأ ما يكون . اليكم ما قرأته :

« **ابنى بترو :**

« وصلتنا رسالتك فى الخامس عشر من الشهر الحالى ، وفيها تطلب الينا الموافقة على زواجك بماريا بنت ايفان ميرونوف ، ومباركة هذا الزواج . **فاعلم اننى انوى أن امنع عنك الموافقة والمباركة معا .** بل أضيف الى ذلك اننى افكرت فى أن أقبض عليك - برغم انك فى رتبة ضابط - وأن أعطيك الدرس الذى يعطى لصبية صغار . ذلك لأنك برهنت فعلا على أنك ما زلت غير أهل لحمل السيف الذى عهد به اليك لتدافع عن الوطن ، لا لتقتل فى مبارزة مع أناس تافهين مثلك . سأكتب بلا ابطاء الى آندريه كارلوفتش أطلب اليه أن ينقلك من الحصن الى أبعد مكان ممكن ، عسى أن تنسى هنالك حماقاتك وسخافاتك . **حين علمت أمك بنبأ المبارزة والجرح ، سقطت مريضة من الحزن والكرب ولزمت فراشها .** كيف انت الآن؟ . . أسأل الله ان يردك الى الصراط المستقيم ، وان كنت لا أجرؤى على ان استغفره لك . **أبوك : آ . ج »**

***

أيقظت هذه الرسالة فى نفسى جميع انواع العواطف : آلمتنى هذه العبارات القاسية يرسلها ابى فى سخاء ، وبدا لى هذا الاحتقار الذى يشتمل عليه كلامه عن « ماريا ايفانوفنا » استهتارا بها لا تستحقه . وصعقت حين تصورت اننى سأترك الحصن فى القريب ، وأحزننى مرض أمى أكثر من اى شىء آخر ، وحقدت على سافيليتش حقدا قاتلا ، لأنه هو الذى أبلغ أبوى نبأ المبارزة من غير شك . فمضيت اجتاز اليه

الغرفة الضيقة ، حتى وقفت أمامه ، فألقيت عليه نظرة مهددة متوعدة . وقلت : « لم يكفك أنني جرحت وظللت شهرا كاملا على شفا القبر بسببك ، فأردت أيضا أن تقتل امى ! »

وصعق سافيليتش ذعرا ورعبا ، وأوشك أن ينفجر منتحبا ، وقال : « ماذا تقول ياسيدى ؟ .. ابسببى اذن جرحت ؟ .. يعلم الله أننى كنت أركض لأحميك ، معرضا صدرى لسيف الكسى ايفانتش ، ولم يمنعنى عن ذلك الا الشيخوخة اللعينة .. ثم ماذا صنعت لأمك ؟ »

ـ ماذا صنعت لها ؟ .. من ذا الذى طلب اليك أن تكتب واشيا بى ؟ .. من الذى طلب اليك أن تتجسس على ؟

فقال سافيليتش وهو يبكى بكاء سخيا : « أنا وشيت بك ؟ .. يا الهى ! .. ولكن اقرأ ماذا كتب الى سيدى والدك ! .. اقرأ فتعلم هل وشيت بك ! » .. قال هذا ، واستل من جيبة رسالة ، فقرأ لى ما يلى :

« الا تستحى أيها الكلب الهرم ؟ .. لماذا لم تكتب الى شيئا عن بترو اندريفتش ، مع أننى أمرتك بأن تنقل الى أنباءه ؟ .. ان الغرباء هم الذين يتولون ابلاغى حماقاته . أهكذا تقوم بواجباتك ، وتنفذ أوامر اسيادك ؟ .. عقابا لك على انك اخفيت الحقيقة ، وسهلت حماقة سيدك الشاب ، سأرسلك ترعى الخنازير ، أيها الكلب الخرف ! .. اننى آمرك بأن تكتب الى ، فور وصول هذه الرسالة اليك ـ دون ابطاء ـ بأنباء صحته . لقد قيل لى انه شفى . اذكر لى اين كانت الاصابة ، وهل عولج الجرح معالجة كافية ! »

كان واضحا اذن ان سافيليتش ليس ملوما ، وان ظنونى فى غير محلها . فسألته ان يغفر لى هذه الاهانة التى وجهتها

اليه دون ان يستحقها ، الا ان كلامى لم يستطع أن يعزيه . وقال : « اهكذا اذن ؟ .. اهكذا يكافئنى اسيادى ؟ .. كلب هرم ، راعى خنازير ! .. وانا السبب فى جرحك ؟ .. كلا ياعزيزى ، لست انا السبب .. السبب هو ذلك « المسيو » اللعين الذى علمك هز السيوف والركل بالأرجل ، كأن ذلك هو الوسيلة التى يحفظ بها الانسان نفسه من الاذى ! .. أكان ضروريا استئجار هذا « المسيو » وتبديد المال سدى ؟ ! »

ترى من ذا الذى كلف نفسه ــ اذن ــ عناء اطلاع ابى على سلوكى ؟ ..أهو القائد اللواء ؟ ..ولكن القائد لايبدو مهتما بشئونى ، ثم أن « ايفان كوزمتش » لم ير من الضرورى أن يقدم له تقريرا عن هذه المبارزة . ورحت اخمن وارجم .. وانصبت شبهاتى على شفابرين . انه الشخص الوحيد الذى قد يستفيد من الوشاية بى ، اذ يترتب عليها أن اترك الخدمن وانفصل عن أسرة الآمر .

ومضيت الى « ماريا ايفانوفنا » ، لأطلعها على كل شىء ، فلقيتها على درج الباب . وقالت حين رأتنى : « ماذا حدث لك ؟ انك ممتقع اللون جدا » . فقلت وانا أمد لها رسالة أبى : « لقد انتهى كل شىء » . فامتقع لونها هى الأخرى . حتى اذا فرغت من قراءة الرسالة مدتها الى بيد مرتجفة وهى تقول : « هذه ارادة القدر .. ان ابويك لايحبانى . **لتكن مشيئة الله . انه اعلم بما نحن فى حاجة اليه . وما دام الأمر كذلك ، فكن سعيدا انت على الأقل ! »**

فهتفت وانا امسك يدها : « لن يكون هذا أبدا . انك تحبيننى ، وانا مستعد لكل شىء . لنذهب الى ابويك نرتمى على أقدامهما . انهما من الناس البسطاء ، لا من الناس المزهوين القاسية قلوبهم ، وسيوافقان على زواجنا ويباركانه ،

فنتزوج .. وأنا واثق من أننا نستطيع فى المستقبل أن نلين ارادة ابى ، وستكون أمى معنا تدافع عنا ، فيغفر لنا الخروج على ارادته ! »

فأجابت ماشا : « **كلا يابترو اندريفتش .. لن أتزوجك قبل أن نحصل على مباركة أبويك ، والا كان الشقاء حظنا من الحياة ! ..** لنخضع لمشيئة الله . واذا وجدت خطيبة أخرى ، اذا أحببت فتاة أخرى ، سألت الله أن يمدك بعونه ، يابترو اندريفتش . أما أنا ، فأمضى .. فى سبيلكما ! » .. وتفجرت الدموع من عينيها . وتركتنى وحدى . وأردت أن اتبعها الى داخل البيت ، ولكنى شعرت أننى فى حالة لا استطيع معها أن أملك زمام نفسي ، فرجعت الى بيتى .

وفيما أنا غارق فى أحلام بعيدة ، اذا بسافيليتش يقطع على تأملاتى وهو يمد الى ورقة مطرزة بخطه ، ويقول : « خذ ياسيدى وانظر بنفسك هل أنا واش ، وهل حاولت ان افسد الجو بين سيدى الشاب وابيه ! » . فتناولت الورقة التى مدها الى . واذا بها جواب على الرسالة التى تلقاها من أبى . وها أنا ذا انقلها هنا كلمة كلمة :

« **سيدى اندريه بتروفتش ، ابانا الرحيم :**

« تلقيت كتابكم اللطيف ، الذى حلا لكم فيه أن تبدو استياءكم من خادمكم ، والذى تلومونني فيه على أننى لا أطيع اسيادى . لست بالكلب الهرم ، ياسيدى ، وانما انا خادمكم الأمين . اننى انفذ اوامر أسيادى . ولقد خدمتكم دائما فى حماسة الى اليوم الذى ابيض فيه شعرى تماما . ولئن لم أكتب اليكم شيئا بصدد جرح بترو اندريفتش ، فما ذلك الا لأننى لم أشأ ان أخيفكم فيما لا فائدة فيه . ولقد سمعت ان مولاتى ادوفيتيا فاسيليفنا قد بلغت من الجزع حدا الزمها فراشها . اننى

ادعو الله ان يرد اليها عافيتها . لقد جرح بترو اندريفتش في صدره ، تحت عظم الكتف الأيمن على وجه الدقة ، وكان عمق الجرح فركوكا ونصف فركوك (١) .. وقد نقلناه من ضفة النهر الى منزل الآمر ، حيث عالجه هنالك ستيفان باموروننوف ، حلاق المنطقة . وان بترو اندريفتش الآن - بحمدلله - في تمام عافيته ، ولا انقل اليكم من اخباره الا الحسن المطمئن . **يقال أن رؤساءه راضون عنه ، وان فاسيليسا ييجورفنا تعامله كأنه ابنها** . ولئن وقع له هذا الحادث ، فان لكل جواد كبوة ، والاخطاء الماضية لا تذهب شرف الشجاع . لقد حلا لكم ان تكتبوا انكم سترسلونني ارعى الخنازير . انكم ياسيدي احرار في عبيدكم تتصرفون فيهم كما تشاءون . ولا يسعني في الختام الا ان احييكم ذليلا .

خادمكم الأمين : اربيب فيليف »

لم استطع ان امنع نفسي عن الابتسام وانا اقرأ رسالة العجوز الطيب . وكنت لا اشعر ان بي من القوة مايمكنني من الاجابة بنفسي ، فبدت لي رسالة سافيليتش كافية لتطمين أمي .

وتغير حالي منذ ذلك اليوم تغيرا كبيرا ، فان ماريا ايفانوفنا اصبحت لاتكلمني تقريبا ، واصبحت تحاول جهدها ان تتحاشى لقائي . واصبح بيت الآمر ثقيلا على نفسي ، ثم تعودت - شيئا بعد شيء - ان ابقى وحيدا في بيتي . ولامتني فاسيليسا ايفانوفنا في أول الأمر على ذلك ، الا انها - وقد رأت اصراري - تركتني وشأني . واصبحت لا أرى ايفان كوزمتش ، الا حين يقتضي عملي ذلك ، ولا ألقى شفابرين الا

(١) حوالى سبعة سنتيمترات تقريبا .

فى النادر القليل ، ودون ان اجد فى لقائه اية متعة ، لاسيما وانني لاحظت انه يحمل لى كرها خفيا . وهذا ما أيد ظنوني وشبهاتي . . صرت كمن اشمأز من الحياة كلها ، وهويت الى كآبة قاتمة تقويها الوحدة ، وتغذيها البطالة . **وكانت العزلة تزيد حرارة حبى ، فكنت ازداد الما وعذابا يوما بعد يوم .** وفقدت الميل الى القراءة والى كل شاغل ادبى ، واصبحت فى حالة من الانهيار المرضى خشيت معها احد شيئين : الجنون او المجون . الا ان حوادث لم تكن فى الحسبان ، بثت فى نفسى ــ على حين فجأة ــ اندفاعة قوية مفيدة ، كان لها فى حياتى كلها تأثير عظيم .

(٦) ـ الاستعداد لمواجهة المتمردين

« اسمعوا ايها الفتية البسطاء ..
« ما نقصه عليكم ، نحن الشيوخ » ـ اغنية

• **قبل** أن أشرع فى سرد الأحداث الغريبة التى شهدتها ، يجب على ان أقول بضع كلمات عن حالة اقليم (أورنبورج) فى أواخر عام ١٧٧٣ :

كان يقطن هذا الاقليم الغنى الواسع ، عدد من الأقوام هم الى التوحش أقرب منهم الى التمدن ، لم يعترفوا بالسيادة الروسية الا منذ عهد قريب . ولم تكن هذه الأقوام قد تعودت النظام وحياة الحضارة ، فكانت طباعها لا تخلو من طيش وقسوة ، وكانت تقوم بثورات كثيرة . فكان هذا كله يقتضي من جانب الحكومة رقابة متواصلة تلزمهم باحترام الدولة والخضوع للقانون ، فأقامت حصونا حيث بدأ ذلك ضروريا ، وعينت للحصون فى الغالب جنودا من القوزاق ، يقطنون ضفاف (اليائيق) منذ مدة طويلة . **الا أن هؤلاء المحاربين الذين اعتمدت عليهم الدولة لاقامة دعائم الهدوء والأمن فى البلاد ، كانوا هم أنفسهم رعايا طائشين خطرين** • فأشعلوا الثورة فى عاصمتهم ، عام ١٧٧٢ . وكان الدافع الى هذه الثورة ما اتخذه اللواء « تراوينبيرج » من اجراءات قاسية لاخضاع فرقة (اليائيق) للنظام ، فقتلوا «تراوينبيرج» قتلا وحشيا ، واحدثوا فى القيادة ماشاء لهم هواهم من تبديلات . الا أن الفتنة أخمدت أخيرا وأنزلت فى الثائرين عقوبات هائلة .

كل ذلك كان قد وقع قبل وصولى الى (بيلوجورسكايا) بقليل . وكان كل شيء قد عاد الى النظام ، فى الظاهر على أقل تقدير .. وقد اسرفت السلطات فى تصديق التوبة

الكاذبة التي يظهرها هؤلاء القوزاقيون ، على حين ظل الحقد يملأ نفوسهم ، فهم ينتظرون الفرصة المواتية لاستئناف أعمال العصيان والفوضى .

وبعد ، فلنعد الى قصتنا . ففي ذات مساء - وكان ذلك في أول تشرين الثاني من عام ١٧٧٣ - بينما كنت واقفا الى نافذتي وحيدا ، استمع الى صفير الريح واتأمل السحب التي تغشي القمر ، جاءني أحدهم يقول ان الآمر يستدعيني . فذهبت اليه على الفور ، فوجدته مؤتمرا (١) بشفابرين وايفان اجناتتش والوكيل القوزاقي . ولم تكن بينهم فاسيليسا يجورفنا ولا ماريا ايفانوفنا . واستقبلني الآمر وقد بدا عليه القلق والاضطراب ، ثم اغلق الباب وطلب الى الجميع أن يجلسوا ، الا الوكيل ظل واقفا الى جانب الباب . ثم أخرج الآمر من جيبه ورقة وهو يقول : «هناك خبرهام ، ياحضرات الضباط .. اسمعوا ماذا كتب الى القائد اللواء :

« الى الرئيس ميرونوف ، آمر حصن بيلوجورسكايا - مكتوم (٢)

«أرسل اليكم هذا الكتاب لاعلمكم ان قوزاقيا من الدون ، يدعى اميليان بوجاتشيف ، قد هرب من السجن ، واقترف وقاحة لاتغتفر اذ انتحل أسم المرحوم الامبراطور بطرس الثالث ، وجمع عصابة من المجرمين ، فدعا جنود (اليائيق) الى الثورة ، واستولى على عدة حصون حتى الآن وخربها ، واثار القتل والنهب والسلب في كل مكان . لذلك يجب عليكم ، ياحضرة الرئيس - لدى وصول هذه الرسالة اليكم - أن تتخذو الاجراءات اللازمة لرد هذا اللص المدعى ، ولافنائه

---

(١) أى : مجتمعا بهيئة المؤتمر

(٢) اى سرى ..

اذا أمكن ، متى بدا له أن يهاجم الحصن الذى عهد به الى كفاءتكم الممتازة . »

ـ الاجراءات الازمة ؟ !

قال الأمر ذلك وهو يرفع نظارتيه ويطوى الورقة . ثم أردف يقول : « الكلام سهل ! .. ان هذا الكلب قوى فيما يظهر ، ونحن لانملك الا ١٣٠ رجلا ، فيما عدا القوزاق الذين لايعتمد عليهم كثيرا . . لاتؤاخذنى يامكسيمتش ! **(هنا ضحك الوكيل)** على انه لابد من العمل ، ياحضرات الضباط ، فكونوا على اهبة من الأمر ، ونظموا الرقابة ودوريات الليل . . وانت يامكسيمتش ، عليك بمراقبة أصحابك القوزاق مراقبة جيدة ، وليفحص المدفع ، ولينظف تنظيفا جيدا . ولكن قبل كل شىء ، اياكم واذاعة النبأ ! . . **حافظوا على السر محافظة مطلقة ، حتى لايعرف الأمر أحد من الحصن قبل الأوان** » .. قال الأمر هذا الكلام ، ثم اذن لنا بالانصراف ، فخرجت يصحبنى شفابرين ، وتحدثنا فيما سمعنا .

قلت : « ما رايك ؟ كيف ينتهى الأمر فيما تعتقد ؟ » فأجاب شفابرين قائلا : « الله أعلم ، على أن الأمر ـ حتى الآن ـ ليس بالخطير . أما اذا . . » . وأطرق فجأة يفكر ، ثم أخذ يصفر لحنا فرنسيا وهو ذاهل .

***

ذاع نبأ ظهور بوجاتشيف فى الحصن ، رغم جميع ما اتخذنا من احتياطات لكتمانه . ماكان لايفان كوزمتش ، رغم الاحترام العظيم الذى يحمله لزوجته ، أن يفضى لها بسر من أسرار العمل على أى حال من الاحوال . لذلك ماكاد يتلقى رسالة القائد اللواء ، حتى تصرف بحكمه ولباقة ، ليدبر فاسيليسا ييجوروفنا من البيت . فزعم لها ان الأب جراسيم قد تلقى

من (أورنبورج) أنباء خارقة لايريد أن يبوح بها أبدا . فما أن سمعت فاسيليسا ييجوروفنا ذلك ، حتى تملكتها رغبة قوية فى زيارة الأب جراسيم ، واقترح عليها ايفان كوزمتش أن تصحب ماشا دفعا للملل أثناء الطريق .. فلما أن ذهبت فاسيليسا ييجوروفنا ، وأصبح سيد الأمر وحده ، أرسل يستدعينا على الفور ، وسجن « بالاشكا » فى المستودع ، تحاشيا لكل ما قد يفشى السر .

وعادت فاسيليسا ييجوروفنا الى البيت دون أن تستطيع استدراج الأب جراسيم الى الافضاء بأى شيء ، ثم ما لبثت أن علمت أن اجتماعا قدعقد أثناء غيابها فى البيت وأن بالاشكا سجنت فى المستودع . فأدركت أن زوجها قد خدعها ، وأخذت تستدرجه . الا أن ايفان كوزمتش كان قد تهيأ لهجومها ، فلم يضطرب ابدا ، وأجاب بصوت هادىء على استجواب زوجته الطلعة (١) قال : « اسمعى يا عزيزتى ، ان السكان لم يجدوا خيرا من القش يحرقونه فى مدافئهم . ولما كان هذا خطرا جدا ، فقد أصدرت امرا صارما بأن لا يسمح لهم بذلك بعد الآن ، وأن يستغنوا عن القش بالحطب » . فسألته : « ولماذا سجنت بالاشكا؟ .. لماذا اضطرت البنت المسكينة ان تبقى فى المستودع الى ان عدنا ؟ »

ولم يكن ايفان كوزمتش قد تهيأ لهذا السؤال ، فارتبك وتلجلج ، وقال كلاما لا ترابط فيه ولا منطق ، ففهمت فاسيليسا ييجوروفنا انه كان يضللها . ولما كانت تعرف انها لن تستطيع أبدا أن تستدرجه الى البوح بشيء ، فقد غيرت الحديث ، وتكلمت عن الخيار المخلل ، ذاكرة أن امرأة القس

---

(١) اى : الفضولية .

تحضره بطريقة خاصة .. وقضت الليل كله لا يعرف النوم الى جفنيها سبيلا ، الا أنها لم تستطع أن تحرز ما كان يضمر زوجها من أشياء ينبغى أن لا يطلعها عليها ..

وفيما هى عائدة من الصلاة فى اليوم التالى ، رأت ايفان اجناتتش يخرج من المدفع خرقا ، وحصى، ونشارة ، وعظاما، وأنواعا من الصوالة، مما حشاه به الاطفال. فتساءلت الآمرة: «مامعنى هذه الاستعدادات؟.. أيتوقعون هجوم الكرخيز؟.. ولكن أكان يمكن أن يكتم عنى ايفان كوزمتش هذا ؟ »

ثم استدعت ايفان اجناتتش ، وهى تنوى أن تستدرجه قطعا ، وأن تعلم هذا السر الذى يثير فضولها النسوى ..

وبدأت فى أول الامر تبدى له بعض الملاحظات المتعلقة بشئون البيت ، كما يفعل القاضى حين يبدأ بأن يطرح على المتهم أسئلة من شأنها أن تخدر يقظته . ثم بعد ان صمتت لحظة من الوقت ، أطلقت من صدرها زفرة عميقة ، وهزت رأسها ، وقالت متنهدة : « يا الهى !.. ان الاخبار سيئة جدا ، ترى ما الذى سيحل بنا ؟ » . فأجاب ايفان اجناتتش قائلا : « ان الله رحيم يا عزيزتى ، ولدينا عدد كاف من الجنود ، وذخيرتنا من البارود وفيرة ، وقد نظفت المدفع .. ولعلنا نستطيع أن نقاوم بوجاتشيف. من أعانه الله فلا ضار له !» . فسألت الآمرة : « ولكن من هو بوجاتشيف هذا ؟ »

هنا أدرك ايفان اجناتتش أنه قال أكثر مما كان ينبغى أن يقول ، فعض على شفته ، ولكن سبق السيف العزل .. فأجبرته فاسيليسا ييجورفنا على ان يعترف لها بكل شىء ، بعد أن قطعت على نفسها عهدا بأن لا تنقل هذه الاخبار الى أحد ..

ولقد برت بوعدها ، فلم تتحدث بالأمر الى أحد ، اللهم الا زوجة القس ، وذلك لأن بقرة زوجة القس تهرب دائما الى المراعى ، ومن الممكن والحالة هذه أن يقبض عليهـــا هؤلاء



وجلست ماريا ايفانوفنا فى ركن من الغرفة ،
واخذت تخيط .. (ص ٣٧)

اللصوص !.. وما هو الا وقت قصير ، حتى أصبح الناس لا يتحدثون عن شيء غير «بوجاتشيف» . وانقسمت الآراء ، وأصدر الآمر أمره الى الوكيل بأن يمضى يتسقط الأخبار فى الحصون والقرى المجاورة . وعاد هذا بعد يومين يقول انه رأى فى السهوب على بعد ستين فرسخا من الحصن نيرانا كثيرة ، وان الباشكير قد رووا له أن فرقا مجهولة تتقدم بقوى عظيمة . وأضاف الى ذلك أنه لا يستطيع أن يؤكد شيئا على كل حال ، لانه لم يجرؤ ان يبعد فى توغله .

***

ولوحظت حركة قوية بين قوزاق الحصن : فكانوا يتجمعون فى جميع الشوارع ، ويتسارون ، ثم يتفرقون متى اقترب منهم خفير او جندى . وبث الآمر فيهم عيونا تترصدهم ، فجاءه « يولائى » — وهو كلموكى متنصر — بنبأ خطير ، وهو ان اقوال الوكيل كاذبة ، وان هذا القوزاقى المخادع قد ذكر لرفاقه أنه ذهب الى الثوار وقابل رئيسهم ، **وأن رئيسهم هذا قد سمح له بأن يقبل يده ، وانه تحدث اليه مدة طويلة . فما لبث الآمر أن اوقف الوكيل ، وعين « يولائى » فى محله .** فاستقبل القوزاق هذا النبأ باستياء واضح ، وتذمروا منه جهارا ، حتى ان ايفان اجناتتش — الذى عهد اليه الآمر بتنفيذ أمره — قد سمع بأذنيه تهديدات من هذا القبيل : «انتظر قليلا ، أيها الجرذ ، فسيأتى دورك وتحين ساعتك ! »

وكان الآمر يريد أن يستجوب سجينه فى اليوم نفسه ، الا ان السجين فر ، بمعونة أنصاره .. فى اغلب الظن . ووقع حادث جديد فاقم مخاوف الآمر وقلقه . فقد اعتقل أحد الباشكير ، وهو يحمل منشورات تحض على الثورة . فأراد الآمر فى هذه المناسبة أن يجمع ضباطه مرة أخرى ، وأن

يبعد – من اجل ذلك – فاسيليسا ييجوروفنا عن البيت ، بانتحال حجة مناسبة . ولما كان ايفان كوزمتش من أصرح الناس وأكثرهم استقامة ، فانه لم يجد وسيلة أخرى ، غير التى عمد اليها فى المرة الأولى ، والتى كانت ناجحة موفقة ، فقال لامرأته وهو يتنحنح : «اسمعى يافاسيليسا ييجوروفنا .. يقـال أن الأب جراسيم قد تلقى من المدينـة .. » . فقاطعته الآمرة : **« كفى كذبا !.. انك تريد أن تجمع ضباطك لتكلمهم أثناء غيابى فى أمر امليان بوجاتشيف..ولن تخدعنى هذه المرة ! »**

فرفت عينا ايفان كوزمتش، وقال : «اسمعى اذن ياعزيزتى .. مادمت على علم بالامر ، ففى وسعك أن تبقى، وسنتداول فى الموضوع بحضورك » . فقالت : « هكذا يجب أن تتصرف .. ألست أنت من يستطيع المكر !.. هيا استدع الضباط ! »

واجتمعنا مرة أخرى ، فقرأ علينا ايفـان كوزمتش – بحضور زوجته – مطالب بوجاتشيف ، وقد دبجها قوزاقى كاد أن يكون أميا .. **ان هـذا اللص يعلن عن نيته فى زيارة حصننا ، ويدعو القوزاق والجنود الى الالتحاق به ، ويحاول اقناع الرؤساء بأن لايبدأوا أية مقاومة ، ويهددهم بالتعذيب ان هم قاوموا .**

وقد كتبت هذه المطاليب بأسلوب فظ ، ولكنه جذاب لابد ان يحدث تأثيرا خطرا فى أناس بسطاء .. فهتفت الآمرة : « ياله من كلب حقير ! أهذا ما يدعونا اذن اليه : ان نهب الى استقباله ، ونلقى بأعلامنا بين قدميه ؟.. خاب فأل ابن الكلب! الا يعلم اننا نخدم البلاد منذ اربعين عاما ، واننا قد رأينا كثيرا من أمثاله ؟.. هل هناك حقـا من آمرى المواقع من استجاب لدعوة هذا اللص ، وخضع لأمره ؟ »

فأجاب ايفان كوزمتش : « لا أعتقد أن شيئا من هذا قد

حصل ، ولكن يقال ان اللص قد استولى حتى الآن على عدة حصون » . فقال شفابرين : « ذلك لانه قوى حقا » . واذ ذاك قال الآمر : « هذا ما سنراه بعد لحظة .. فاسيليسا ييجوروفنا ، اعطينى مفتاح الشونة !.. ايفان اجناتتش ، على بالباشكيرى ، وقل ليولائى أن يأتينى بالأسواط ! » . فقالت الآمرة وهى تنهض : « **انتظر ياايفان اجناتتش .. دعنى أخرج بماشا قبل كل شيء !.. ستموت خوفا ، ان هى سمعت الصراخ** . وانا نفسى لا احب هذا « التعذيب » والحق يقال .. ارجو لكم التوفيق ! »

وكان التعذيب فى ذلك الوقت من الرسوخ فى تقاليدنا القضائية بحيث أن القرار الموفق الذى أتخذ لالغائها ظل مدة طويلة دون تطبيق .. كانوا يعتقدون أن اعتراف المجرم بجرمه شيء لابد منه . والواقع ان هذا الاعتقاد لا يستند الى أساس ، بل انه ينافى المنطق القضائى ، لانه اذا لم يكن الانكار دليلا على البراءة ، فالاعتراف ليس دليلا على الجرم . ما زال يتفق لى حتى يومنا هذا أن سمع بعض الشيوخ من القضاة يأسفون لزوال هذه العادة الوحشية .. أما فى ذلك الوقت ، فما من أحد كان يشك فى فائدة التعذيب ، لا من القضاة ولا من المتهمين . لذلك فان الأمر الذى أصدره الآمر لم يدهش أحدا ، ولا أقلق أحدا . ومضى ايفان اجناتتش يحضر الباشكيرى الذى كان فى أحد العنابر وبعد لحظات جيء بالسجين الى الدهليز .

اجتاز الباشكيرى العتبة فى مشقة وعناء — اذ كانت قدماه مقيدتين — ثم رفع قبعته المخروطية ، ووقف قريبا من الباب . **فلما نظرت اليه ، سرت فى جسمى رعدة قوية . لن أنسى هذا الرجل ماحييت** .. كان يبدو انه تجاوز السبعين ، وكان مقطوع الأنف ، مصلوم الأذنين ، محلوقا شعر الرأس ،

ى ذقنه بضع شعرات بيض .. وكان قصيرا ، نحيلا ، محدودب الظهر ، الا أن عينيه الصغيرتين كانتا تقدحان شررا .

قال الآمر وقد عرف فيه - من هذه العلامات - ثائرا قديما عوقب عام ١٧٤١ : « أهذا انت أيها الذئب القديم الذى سبق ان وقع فى الفخ !.. اذن ليست هى المرة الأولى التى تثور فيها . أرنى هذا الراس الحليق !.. اقترب ! قل ، من أرسلك ؟ » . ولم يجب الباشكيرى العجوز بشىء ، بل راح يرمى الآمر بنظرة خالية من اى تعبير . فاستأنف الآمر قائلا : « لماذا لا تجيب ! ام انك لا تفهم الروسية ؟ .. يولائى ، اسأله بلغتكم عمن ارسله الى حصننا ؟ »

فردد يولائى السؤال باللغة التترية ، الا أن نظرة الباشكيرى ظلت جامدة لا تعبر عن شىء ، ولم يجب بكلمة واحدة . فقال الآمر : « حسنا . ستجيب بعد قليل . هيا أيها الشباب ، اخلعوا عنه هذا البرد الحقير ، ومزقوا ظهره جلدا !.. يولائى ، اننى أعتمد عليك ، وأوصيك به خيرا ! » .. فأخذ جنديان من المشوهين ينضوان عن الباشكيرى ثيابه . فاذا بوجه الشقى يكتسى تعبيرا قلقا .. فكان يرمى على من حوله نظرات مذعورة ، كحيوان أسره أطفال . حتى اذا امسك أحد الجنديين يديه ووضعهما على كتفيه فى مستوى عنقه ، وقلبه على ظهره ، وهز يولائى سوطه ، فأطلق العجوز صرخة متوسلة ليست بذات أحرف ، ثم رنح رأسه وفغر فاه فاذا نحن نرى فى مكان اللسان قطعة من اللحم مقطوعة ترتقص .

حين أتذكر أن هذا كله قد حدث أثناء حياتى ، واننا وصلنا اليوم الى هذا العهد السعيد ، عهد الامبراطور الكسندر ، لا يسعنى الا ان ادهش لهذا التقدم الذى احرزناه ، ولهذه السرعة فى انتشار المبادىء الانسانية . واذا وقعت مذكراتى

هذه بين يدى شاب ، فليذكر أن احسن التغييرات وأبقاها هى التى ترجع الى تحسن الاخلاق والعادات ، لا الى هزة عنيفة أو ثورة جامحة .

وقال الآمر : « أرى اننا لا نستطيع أن نفهم من هذا الرجل شيئا يذكر . يولائى ، أعد الباشكيرى الى المنبر !.. أما نحن ايها السادة ، فقد بقيت هنالك أشياء كثيرة يجب أن ننظر فيها ! »

***

وفيما نحن نعالج الموقف ، اذا بفاسيليسا ييجوروفنا تدخل الغرفة فجأة وهى تلهث ، وقد لاح فى وجهها ذعر عميق . فسألها زوجها دهشا : « ماذا حدث لك ؟ »

– شر مستطير !.. احتلوا اليوم (تبين – اوزرنايا) .. لقد وصل الآن منها أحد عمال الأب جراسيم ، وقال انه شهد المعركة ، وأن الآمر وجميع الضباط قد شنقوا .. **فمن المتوقع اذن أن تصل العصابة بين لحظة واخرى .**

صعقت لهذا النبأ ، فانتى أعرف آمر الموقع فى (نين – أوزرنايا) .. وهو رجل فى ريعان الشباب ، رقيق الحاشية ، نزل – منذ شهرين – ضيفا على ايفان كوزمتش فى طريق عودته من أورنبورج مع عروسه الشابة . وكانت (نين – أوزرنايا) تقع على بعد ٢٥ فرسخا من بيلوجورسكايا .. فكان من المتوقع اذن أن تهاجمنا عصابات بوجاتشيف فى كل لحظة . **وتصورت المصير الذى قد تؤول اليه ماريا ايفانوفنا ، فاختنق صدرى غما وقلقا .** وقلت متجها الى الآمر : « اسمع يا ايفان كوزمتش !.. ان واجبنا هو أن ندافع عن الحصن حتى النفس الأخير ، هذا أمر لا يخامرنا فيه ظل من شك . ولكن يجب أن نوقى السيدات اى أذى يمكن أن يقع عليهن

.. فأرسلهن الى (اورنبورج) ، اذا كان الطريق حرا ، أو ارسلهن الى أى حصن بعيد لا يتسع وقت اللصوص للوصول اليه ! »

فالتفت ايفان كوزمتش الى زوجته يسألها : « هل تسمعين ؟ .. ما رأيك فى أن ارسلكما الى مكان بعيد ، الى أن نتغلب على هؤلاء العصاة ؟ » . فأجابت الآمرة : « هذا جنون ! .. أين الحصن الذى لا ينال منه الرصاص ؟ .. ولماذا تظن ان حصن بيلوجورسكايا اقل مناعة من غيره ؟ .. نحن فيه ، بحمد الله ، منذ اثنين وعشرين عاما ، وقد رأينا كثيرا من رجال الباشكير والكرخيز ، وسيعصمنا باذن الله من بوجانشيف ! » . فأجاب ايفان كوزمتش يقول : « حسنا ، ابقى هنا ما دمت تولين حصننا كل هذه الثقة . ولكن ، ما نصنع بماشا ؟ .. ان الأمر ليهون اذا استطعنا ان نظفر — فى الدفاع عن أنفسنا — أو اذا وصلتنا نجدة ، ولكن .. اذا استطاع الثوار ان يستولوا على الحصن .. »

— عندئذ .. ؟!

قالت فاسيليسا ييجورفنا ذلك ، ثم صمتت ، وقد لاح فى وجهها تأثر عميق . فاستأنف الآمر يقول ، وقد لاحظ أن كلامه أحدث تأثيرا فى زوجته . ربما لأول مرة فى حياته : « كلا يافاسيليسا ييجوروفنا .. يجب أن لاتبقى ماشا هنا . فلنرسلها الى (اورنبورج) تقيم عند اشبينتها ، فانهم يملكون هناك عددا كافيا من فرق القتال ومن المدافع ، والأسوار هناك من حجر . وانى لأنصحك أنت أيضا بالمضى الى اورنبورج . سترين ماذا يصنع بك هؤلاء اللصوص ، ان قدر لهم أن استولوا على الحصن ، فلن يصدهم أنك عجوز ! »

فأجابت الآمرة : « اوافق على ارسال ماشا . أما أنا فلا تطلب الى ذلك أبدا ، ولا فى الحلم . لن أذهب ! . لن انفصل

عنك فى هذه السن ، لأمضى باحثة عن قبر وحيد فى بلد مجهول. لقد عشنا معا ، ومعا سنموت ! » .. فأجاب الآمر : « هذا كلام معقول ، وينبغى اذن أن لانضيع الوقت .. هيا حضرى ماشا للسفر ، فسنرسلها غدا فى الفجر ، وسيصحبها خفير، برغم أننا لانملك من الرجال مايفيض عن حاجتنا . ولكن أين ماشا الآن ؟ »

— انها فى بيت آكولينا بامفولوفنا . لقد اغمى عليها حين بلغها نبأ الاستيلاء على (نين — أوزرنايا) ، وانى لأخشى أن تسقط مريضة . رباه ! الى أين وصلنا !

ومضت فاسيليسا يجورووفنا تهيىء سفر ابنتها . واستمر الحديث ، الا أننى أصبحت لا أشارك فيه ، ولا أسمع شيئا .

ورأيت ماريا ايفانوفنا على العشاء شاحبة الوجه ، مورمة الجفن من البكاء . وتناولنا طعامنا صامتين ، ونهضنا عن المائدة قبل الأوان المألوف ، ثم استأذنا الأسرة بالانصراف .. واتجه كل منا الى بيته ، الا أننى تعمدت أن أنسى سيفى فى منزل الآمر ، ثم عدت لأخذه .. وكنت أشعر أنى سأقابل ماريا ايفانوفنا على انفراد ، فتحقق ظنى .. ولقيتنى ماريا ايفانوفنا عند الباب تمد الى السيف . وقالت والدموع فى عينيها : « بترو اندريفتش ، انهم يرسلوننى الى اورنبورج .. أرجو لك عمرا مديدا وحياة سعيدة .. وقد يشاء الله أن نلتقى مرة أخرى ، والا .. » . ثم انفجرت تنتحب ، فأخذتها بين ذراعى . وقلت أجيب :

— الى اللقاء ياملاكى ، الى اللقاء ياعزيزتى ، ياحبيبتى ! .. وثقى أنك ستكونين فى خيالى الى آخر لحظة ، مهما يقع من أحداث .. وأن آخر صلاة تتمم بها شفتاى ستكون لك !

وكانت ماتزال تنتحب .. وارتمت على صدرى ، فقبلتها فى حرارة ، وسارعت فتركت الغرفة .

(٧) العدو يستولى على حصننا •

« لك الله يا رأسي المسكين ،
« قضيت بالخدمة ثلاثة وثلاثين عاما ،
« لم تفز بمغنم ، لم تفز بفرحة ،
« لا ولا قول جميل ..
« ما فزت الا بركيزتين طويلتين ،
« وعارضة من خشب الدلب ،
« وعقدة من حرير ! » ــ اغنية شعبية

• قضيت تلك الليلة كلها دون أن أنام ، ودون أن أخلع ملابسي .. كنت انوى أن أذهب عند الفجر الى باب الحصن الذى ستخرج منه ماريا ايفانوفنا راحلة ، فأودعها الوداع الأخير .. كنت أشعر بتغير فى نفسي. ان الانفعال الذى أعانيه فى هذه اللحظة أخف وطأة ــ على نفسي ــ من تلك الكآبة التى عشتها فى الأوقات الأخيرة . لقد أضيفت الى آلام الفراق ، آمال عذبة ــ على أنها غير واضحة ــ وشوق الى الأخطار ، وشعور بالطموح نبيل !

وانقضى الليل دون أن أحس انقضاءه. وكنت على وشك أن اخرج الى الشارع ، حين فتح الباب ، ودخل على أحد الرقباء ، يبلغنى أن القوزاق قد تركوا الحصن اثناء الليل ، وجروا معهم « يولائى » عنوة .. وان أناسا مجهولين يحومون بخيولهم حول بيلوجورسكايا . فأعطيت الرقيب بعض التعليمات بسرعة ، وهرعت الى بيت الآمر .. وكان الصباح قد طلع. وكنت أطير فى الشوارع ، حين سمعت صوتا ينادينى ، فتوقفت .. فاذا هو ايفان اجناتتش . وقال وهو يلحق بى : « الى أين تركض ؟ .. ان ايفان كوزمتش على الأسوار ، وقد اوفدنى لاستدعائك . لقد وصل بوجاتشيف ! » .. فقلت وأنا أشعر بقلبي يرتعد : « وماريا ايفانوفنا ؟ .. هل سافرت ؟ » فأجاب :

« كلا .. لم يتسع الوقت . ان طريق اورنبورج مقطوع ، والحصن محاصر .. الحالة سيئة يابترو اندريفتش ! »

وذهبنا الى الأسوار .. انها مرتفع من الأرض طبيعى ، أضيفت اليه بعض التعزيزات . وكان جميع سكان الحصن يسارعون الى الأسوار . ورأيت الجنود على أهبة القتال ، والمدافع قد لدسب منذ الأمس .. ورأيت الآمر يتجول أمام صفوف جنوده الموزعة هنا وهناك .. كان اقتراب الخطر قد بث فى هذا المحارب العجوز شجاعة خارقة . ورأيت عشرين فارسا يخبون غير بعيد من الحصن .. كان معظمهم من القوزاق ، وان رؤى بينهم عدد من الباشكير الذين يعرفون بسهولة من قبعاتهم المصنوعة من جلد الفهد ، ومن كناناتهم .

وكان الآمر يطوف بين جنوده قائلا : « فلنقاتل اليوم يا اولادى فى سبيل أمنا القيصرة (كاترين الثانية) ، ولنبرهن للعالم بأسره على أننا أناس شجعان أمناء على العهد ! » . فكان الجنود يجيبونه بهتافات عالية ، مؤكدين حماستهم وقوة باسهم . ووقف شفابرين الى جانبى يحدق فى العدو بانتباه شديد . **فلما لاحظ فرسان العدو هذه الحركة فى الحصن ، اقترب بعضهم من بعض ، وكأنما أخذوا يتشاورون فيما بينهم ليحكموا تنظيم صفوفهم** . فما كان من الآمر الا أن أصدر أمره الى ايفان اجناتتش أن يسدد نيران مدفعه على هذه الطائفة . واقترب هو نفسه يشعل الفتيل . ودوت القذيفة ، الا أنها مرت فوق رؤوسهم دون ان تصيبهم بأى أذى . وتفرق الفرسان على الفور ، ومضوا على صهوات جيادهم خببا . ولم تلبث المراعى ان اقفرت .

وفى هذه اللحظة ظهرت فاسيليسا يجورفنا على السور ، تتبعها « ماريا » ، التى لم تشأ أن تبقى فى الوراء . وتساءلت الامرة : « وبعد ؟ أين المعركة ؟ .. لست أري عدوا ! » .

فأجاب ايفان كوزمتش قائلا : «ليس العدو ببعيد . وستسير الأمور على أحسن حال ان شاء الله .. وأنت يا ماشا ، هل أنت خائفة ؟ » . فأجابت ماريا ايفانوفنا : «كلا يا أبت . أن بقائى وحيدة فى البيت يخيفنى أكثر ! »

ثم ألقت على نظرة رقيقة ، وحاولت ان تبتسم ، فرأيتنى أشد على قبضة سيفى على غير ارادة منى .. هذا السيف التى ناولتنيه أمس بيدها ، كأنما لأدافع به عنها .. كان الدم يغلى فى عروقى ، وتخيلتنى فارس «ماشا» . وتحرقت شوقا الى ان أبرهن لها على أننى جدير بثقتها ، فأخذت انتظر اللحظة الحاسمة بصبر فارغ .

فى هذه اللحظة ، رأينا أفواجا جديدة من الفرسان تظهر من وراء رابية على بعد نصف فرسخ من المكان . وسرعان ما امتلأت المراعى كلها برجال مسلحين يحملون رماحا وأقواسا ، فى وسطهم رجل يرتدى قفطانا أحمر ويمتطى صهوة جواد أصهب ، ويهز بيده سيفا مسلولا .. وكان هذا الرجل هو بوجاتشيف !

وقف بوجاتشيف ، وتحلق حوله رجاله . ثم انفصل عن الجمع اربعة رجال اتجهوا نحو الحصن ، بعد أن تلقوا أمرا بذلك من غير ريب . فلما اقتربوا من الحصن ، عرفنا فيهم خونتنا . كان أحدهم يحرك فوق قبعته صحيفة من الورق . وكان آخر يحمل على طرف رمحه رأس يولائى ، قذفه الينا من فوق السور ، فتدحرج رأس المسكين بين قدمى الآمر . وأخذ الخونة يصيحون : «لا تطلقوا النار . تعالوا قابلوا القيصر .. ان جلالته هنا ! » . فأجاب ايفان كوزمتش قائلا : «انتظروا قليلا أيها الخونة . أطلقوا النار ، أولادى ! »

فأطلق جنودنا نيران أسلحتهم ، فرأيت القوزاقى الذى يحمل الرسالة يترنح فوق حصانه ، ثم يتدحرج على الأرض ،

وولى رفاقه الادبار . **نظرت الى ((ماريا ايفانوفنا)) ، فاذا هى – وقد صعقها منظر الرأس الدامى ، رأس يولانى ، واصمها اطلاق النار – تبدو كانما هى فقدت وعيها .** ونادى الآمر أحد الرقباء ، وأمره أن يأتيه بصحيفة الورق التى سقطت من بين يدى القوزاقى القتيل ، فخرج القوزاقى الى السهل، وعاد يجر حصان القتيل . ومد الرسالة الى الآمر . فلما فرغ ايفان كوزمتش من قراءتها ، مزقها شر ممزق . وكان المجرمون المكرة يتهيأون – أثناء ذلك – لمباشرة العمل ، فما لبث رصاصهم أن أخذ يصفر فى آذاننا . وجاءت بعض النبال تخترق الأرض والسور بالقرب منا .

قال الآمر يخاطب زوجته : ((فاسيليسا ييجورفنا ! .. ليس الأمر الآن أمر نساء ، فاذهبى بماشا ! .. ألا ترين أنها أقرب الى الموت منها الى الحياة !)) . وتأثرت فاسيليسا ييجورفنا من الرصاص ، فألقت نظرة على المراعى التى تضطرب بحركة كبيرة ، ثم قالت وهى تلتفت نحو زوجها : **((ايفان كوزمتش ، لايعرف أحد من يموت ومن يحيا .. بارك ماشا ! .. ماشا ، اقتربى من أبيك !))**

فاقتربت ماشا من ايفان كوزمتش ، ممتقعة اللون مرتجفة ، ثم جثت على ركبتيها وانحنت حتى لامست الأرض . فرسم الآمر عليها اشارة الصليب ثلاث مرات ، ثم انهضها فقبلها ، وقال لها بصوت متهدج : ((ماشا ، اتمنى لك السعادة .. لن يتخلى الله عنك ، فصلى له! .. واذا قيض الله لك رجلا شريفا يتزوجك ، فانى اسأله تعالى ان يهب لكما السعادة . . اسعدى كما سعدنا مع فاسيليسا ييجورفنا . وداعا يا ماشا ! .. فاسيليسا ييجورفنا ، اذهبى بها حالا !))

فارتمت ماشا على عنقه ، وأخذت تشهق . وقالت الآمرة وهى تبكى : **((لنتعانق نحن أيضا ! .. وداعا يا عزيزى ايفان**

گوزمتش . سامحنى اذا كنت قد أسأت اليك فى شىء !» .. فقال وهو يقبل نصفه العجوز : « وداعا ، وداعا ياعزيزتى ! .. والآن ، يكفى هذا . ارجعا الى البيت ، والبسى «ماشا» ثوب « السارافان » اذا اتسع الوقت لذلك ! »

***

وانسحبت الأم معابنتها ، ونظرت اليهما تمضيان ، فرأيت ماشا تلتفت الى وتحنى رأسها فى تحية . وفى هذه اللحظة لفت ايفان كوزمتش نظرنا الى حركات يقوم بها العدو . كان العصاه يتجمعون حول زعيمهم ، ثم ينزلون فجاة عن جيادهم .. فقال الآمر : « الآن سيهجمون .. استعدوا ! »

فى هذه اللحظة ، سمعنا صرخات وزئيرا مدويا . وهجم الثوار يتقدمون نحو الحصن راكضين .. وكان مدفعنا مشحونا ، فتركهم الآمر يقتربون ، حتى اذا صاروا على مسافة قصيرة منا ، أطلق نار المدفع على حين غرة ، فسقطت القذيفة فى وسطهم ، فتفرق العصاة يتراجعون .. ووقف زعيمهم وحده فى الأمام .. كان يهز سيفه ، ويطمئن رجاله ، ويبث فيهم الحماسة.. فاذا الصراخ والزئير — اللذان انقطعا لحظة من الوقت — يدويان مرة أخرى فى قوة أكبر . فقال الآمر : « والآن يااولادى ، افتحوا الباب ، ودقوا الطبل . اتبعونى أيها الشجعان ، سنخرج اليهم ! » .. وما هى الا طرفة عين ، حتى كنا — أنا والآمر وايفان اجناتتش — فى الجهة الثانية من السور . الا ان الجنود الخائفين لم يتحركوا . فصرخ الآمر يقول : « ماذا تنتظرون ياأبنائى ؟ .. ان الانسان لايموت الا مرة واحدة ، هذا واجبنا ! »

وفى هذه اللحظة ، وصل الينا العصاة ، واقتحموا باب الحصن . وسكت الطبل ، وألقى رجالنا سلاحهم . وكان

العصاة قد قلبونى على الأرض ، فلما نهضت ، دخلت الحصن وراء المهاجمين ، فرأيت الآمر - وقد جرح رأسه - يقف فى وسط جمع من اللصوص يطلبون اليه مفاتيحه . واردت أن أهب الى نجدته ، الا أن عددا من القوزاق الأقوياء قبضوا على وقيدونى بأحزمتهم ، وهم يقولون : « انتظروا قليلا ، ياخونة قيصركم ! » . وطافوا بنا الشوارع ، فكان السكان يخرجون من بيوتهم يحملون خبزا وملحا (علامة الترحيب) . واخذت الأجراس تدق ، ونودى فى الحشد فجأة ان القيصر فى الساحة الكبرى ينتظر السجناء ، وان الناس سيحلفون له يمين الطاعة والولاء .. فهرع الجمهور نحو الساحة الكبرى ، والى هذه الساحة قادونا نحن أيضا .

وكان « بوجاتشيف » جالسا على مقعد ، فوق الدرج من باب بيت الآمر ، وقد ارتدى قفطانا قوزاقيا أحمر ، تزينه أشرطة موشاة بالذهب . وكانت قبعته عالية ، ذات شرابات ذهبية ، تغطى رأسه حتى الحاجبين فوق عينيه اللامعتين .. وخيل الى أننى أعرف هذا الوجه !.. . كان عدد من الزعماء القوزاق يحفون به . وكان الأب جراسيم واقفا الى جانب الدرج ، ممتقع اللون ، مرتعدا ، وقد امسك بيده صليبا ، وبدا كأنه يضرع الى الله صامتا أن يرحم الضحايا التى ستهلك .. وسرعان ما نصبت مشنقة فى وسط الساحة . وحين اقتربنا من الدرج ، فرق « الباشكير » الجموع المحتشدة ، وقدمونا الى بوجاتشيف . وانقطع صوت الأجراس ، وخيم صمت عميق .

وسأل الغاصب : « ايهم آمر الموقع ؟ » . فخرج الوكيل الخائن من الجمع ، واشار الى ايفان كوزمتش . فالقى بوجاتشيف على الرجل العجوز نظرة حانقة ، وقال له : « كيف جرؤت على مقاومتى ، وانا مولاك القيصر ؟ »

فاذا بالآمر – وكان خائر القوى من وطأة جرحه – يستجمع ما بقى له من عزيمة فيجيب بصوت قوى : ((لست مولاى القيصر .. ما أنت الا لص غاصب . هل تسمع ؟))

فقطب بوجاتشيف حاجبيه ، ولوح بمنديل أبيض ، فسارع عدد من القوزاق ، فقبضوا على الضابط العجوز ، وقادوه الى المشنقة . ورأيت الباشكيرى المشوه – الذى استجوبناه فى الليلة البارحة – راكبا على عارضة المشنقة ، وبيده حبل . وما هى الا برهة ، حتى رأيت المسكين ايفان كوزمتش يتأرجح فى الهواء . ثم جاء دور ايفان اجناتتش ، فقال له بوجاتشيف : «تعال احلف يمين الولاء للقيصر بطرس فيدوروفتش ! » . فأجاب ايفان اجناتتش يردد كلام آمره : « لست قيصرنا . ما أنت الا لص مغتصب ! » .. فلوح بوجاتشيف مرة أخرى بمنديله . ورأيت الملازم الشجاع يشنق الى جانب رئيسه العجوز .

ثم جاء دورى .. والقيت على بوجاتشيف نظرة قوية جريئة ، وانا اتهيأ لترديد الجواب الذى قاله رفيقى الشهمان ، فاذا أنا – على دهشة منى شديدة – **أرى شفابرين واقفا بين القادة العصاة ، وقد حلق شعر راسه على شكل دائرة ، وارتدى القفطان القوزاقى .** ثم رأيته يقترب من بوجاتشيف ، ويهمس فى اذنه بشىء ، فيقول بوجاتشيف دون أن يلقى على نظرة واحدة : « اشنقوه ! »

وضعوا العقدة فى عنقى ، واخذت اردد بعض الصلوات بصوت منخفض ، استغفر الله عن جميع خطاياى ، وأضرع اليه أن يحفظ أولئك الذين أحبهم . . وقادونى الى المشنقة . وسمعت جلادى يرددون على مسامعى قولهم : «كن شجاعا ، كن شجاعا ! » .. ولعلهم كانوا يريدون ان يشجعونى حقا . وفجأة سمعت صرخة تقول : « انتظروا ، انتظروا أيها

المناحيس ! » .. فتوقف الجلادون ، ورأيت سافيليتش جاثيا على قدمى بوجاتشيف ، وسمعت « المربى » المسكين يخاطبه بقوله : « ماذا تجني يامولاى من قتل سيد صغير مسكين ؟ ..دعه وشأنه ، ندفع لك فدية ! ..واذا كان لابد لك حتما من أن تضرب مثلا ، وأن تبث الرعب ، فمرهم بأن يشنقونى أنا الشيخ الهرم ! »

فأشار بوجاتشيف بيده ، فاذا بهم يحلون العقدة عن عنقى ، ويطلقون سراحى قائلين : « ان أبانا قد عفا عنك ! » .. ولا أستطيع أن أقول اننى فرحت — فى تلك اللحظة — فرحا خالصا لايداخله ألم .. لقدتملكتنى عواطف ملتبسة ! .. وقادونى نحو الغاصب وأركعونى أمامه ، فمد الى بوجاتشيف يده المفضضة ، فهتف الناس من حولى يقولون : « قبل يده ! » ..**الا أننى كنت أفضل أن ينزلوا بى أقصى أنواع التعذيب على أن أرضى بهذا الذل !**

وسمعت سافيليتش — وكان ورائى يدفعنى فى ظهرى — يهمس فى أذنى قائلا : «بترو اندريفيتش ، عزيزى ! ..لاتكن عنيدا. .أن هذا لايكلفك شيئا ، أبصق على الأرض وقبل يد هذا المج .. قبل يده ! » . ولكنى لم أحرك ساكنا ، فخفض بوجاتشيف يده ، ثم قال : « لاشك أن السيد النبيل قد فقد صوابه من شدة الفرح .. أنهضوه ! »

فانهضونى ، واطلقوا سراحى . وظللت واقفا أتأمل هذه المهزلة الفظيعة تتتالى فصولها أمامى .

***

وقيد السكان الى حلف اليمين ، فكانوا يقتربون واحدا بعد آخر ، فيقبلون الصليب ، ثم يحيون الغاصب . ورأيت

جنودنا يمرون أمام خياط الطابور ، فيقص لهم ضفائرهم بمقصه المثلم ، ثم يتجهون نحو بوجاتشيف فيقبلون يده ، فيمن عليهم بعفوه ويقبلهم فى عداد عصابته . ودام هذا كله ثلاث ساعات طوال . وأخيرا ترك بوجاتشيف مكانه ، ونزل الى الشارع مع أركان حربه ، وأتوه بحصان أصهب مجهز بأجمل عدة .. ورفعه اثنان من القوزاق من ذراعيه الى صهوة جواده ، وقال للأب جراسيم انه ذاهب الى العشاء فى بيته . وفى هذه اللحظة ، سمع صوت امرأة ، فرأيت عددا من هؤلاء اللصوص يجرون فاسيليسا ييجورفنا على درج الباب ، وقد تشعث شعرها ، وعريت من ملابسها . وكان أحدهم قد اتسع وقته لارتداء معطفها ، وكان الآخرون بسبيل اخراج وسائد وصناديق وأوان وملابس وأنواع كثيرة من الأثاث والثياب .

وكانت المرأة المسكينة تصرخ : « اسمحوا لى أن أصلى وأن أتوب الى الله .. خذونى الى جانب ايفان كوزمتش ! »

فلما رأت المشنقة فجأة ، عرفت زوجها ، فصرخت وقد طاش عقلها : « أيها اللصوص ، ماذا صنعتم به ! .. آه ياعزيزى ايفان كوزمتش ، أيها المحارب الشجاع !.. لم تقدر عليك الحراب البروسية ، ولا قدر عليك الرصاص التركى .. لم تمت فى ساحة القتال ، وانما قتلك مجرم هارب من السجن ! » . فقال بوجاتشيف : « أسكتوا الساحرة العجوز ! » .. فاذا بقوزاقى شاب يهوى بسيفه على رأسها ، فتسقط على الدرج ميتة . ومضى بوجاتشيف فى سبيله وانطلقت الجموع فى أثره .

(٨) – ضيف غير منتظر

« ان ضيفا غير منتظر ..
« لأسوأ من تترى » – مثل روسى

• **خلت** الساحة العامة من الناس .. وظللت من هول مارأيت واقفا لا أتحرك ، ولا أستطيع أن أجمع شتات فكرى ، ولا أن أعزم على شيء من أمرى .. **وكان جهلى بالمصير الذى آلت اليه ماريا ايفانوفنا يعذبنى أكثر من أى شيء آخر .**
أين هى الآن ؟.. ماذا وقع لها ؟.. هل اتسع وقتها للاختباء ؟ .. هل التجأت الى مكان مأمون ؟

ثم دخلت بيت الآمر ، وأنا فيما أنا فيه من تساؤل وقلق وغم .. كان كل شيء فى البيت خاليا . فالكراسى والمناضد والصناديق والأوانى .. كل شيء قد حطم وأفرغ من محتوياته . وصعدت سلما صغيرا يؤدى الى الطابق الأول .. صعدته عدوا وأنا أقفز درجاته أربعا أربعا ، حتى دخلت غرفة « ماريا ايفانوفنا » ، لأول مرة فى حياتى . فرأيت سريرها قد نبشه اللصوص ، ورأيت خزانتها محطمة منهوبة ، ورأيت القنديل الصغير مازال مشتعلا أمام الخزانة الزجاجية التى تضم صور القديسين – والتى بقرها اللصوص – ورأيت المرآة المعلقة بين نافذتين مازالت سليمة لم يمسوها بأذى .. ولكن أين هى سيدة هذه الحجرة المتواضعة ؟ .. وافتنى فكرة رهيبة .. تصورت ماشا بين هؤلاء المجرمين ، فانقبض صدرى ، وذرفت دموعا مرة ، وأنا أنادى حبيبتى بصوت مرتفع .. **فاذا انا اسمع حركة خفيفة ، واذا أنا أرى «بالاشا» تخرج من وراء الخزانة شاحبة الوجه مرتجفة .**

قالت وهى تضم يديها ، احداهما الى الأخرى : « آه يابترو اندريفتش ، ماهذا اليوم ؟ .. ماهذه الأهوال ! » .

فسألتها فارغ الصبر : «وماريا ايفانوفنا ؟ . . ماذا حل بها ؟» . فأجابت : « الآنسة مازالت حية . . انها مختبئة عند آكولينا بامفيلوفنا !» . فهتفت مذعورا : «في منزل الأب جراسيم ؟ ! . . ولكن ، الى هناك أينما ذهب بوجاتشيف ! »

وهرعت الى الشارع . اركض نحو منزل الأب جراسيم ركضا سريعا . . كان بصرى زائغا ، وروحى ذاهلة . . وسمعت صراخا وقهقهات وغناء . . كان بوجاتشيف يطعم ويشرب مع رفاقه . وكانت « بالاشا » قد تبعتنى ، فارسلتها خفية الى آكولينا بامفيلوفنا ارجوها ان تأتى الى لقائى . فما هى الا لحظة ، حتى خرجت زوجة الأب جراسيم الى الدهليز الذى كنت انتظر فيه ، وبيدها زجاجة فارغة . فسالتها فى انفعال شديد : « ارجوك . . اين ماريا ايفانوفنا ؟ » فأجابت :

ــ انها هنا ، هذه الحمامة العزيزة . . على سريرى ، وراء الحاجز . نعم ، يابترو اندريفتش ، لقد كانت من الموت قاب قوسين أو أدنى ، الا أن الله سلم ، وتم كل شيء على مايرام . كان اللص قد جلس الى المائدة ، حين أفاقت من اغمائها فتأوهت ! . . كدت أسقط على الأرض من شدة الرعب . وسمعها اللص ، فاذا هو يسأل : «من ذا الذى يتباكى عندك ياعجوزتى ؟ » . . فحييت هذا الشقى تحية عميقة ، وأنا أقول ! « انها ابنة اختى ، ياسيدى . وهى مريضة منذ أسبوع» . فقال : «وهل هى صبية ، ابنة اختك هذه ؟ » . فقلت : «نعم انها صبية ياسيدى» . قال : «أرنيها اذن أيتها العجوز ! » . . وتوقف قلبى عن الخفقان من شدة الذعر ، ولكن لم يكن ثمة مهرب ، فقلت : « أمرك مطاع ياسيدى ، الا أن ابنتى لاتستطيع أن تنهض لتاتى لتحية سعادتك » . فقال : « لابأس ، أذهب أنا اليها » !

تصور أنه ذهب يراها ، هذا اللص ! .. انتقل الى الجانب الآخر من الحاجز ، وسحب الستائر . ما رأيك ؟ .. **نظر اليها بعينيه الشبيهتين بعينى العقاب ، ولكن كان هذا كل شىء ! .. لقد وقانا الله هذه المحنة !** صدق اننا تهيأنا أنا والأب جراسيم لأن يقتلنا . ومن حسن الحظ أن الحمامة الغالية لم تعرفه أبدا ! .. يا الهى ، رب السموات ! ياله من يوم ! .. يعجز اللسان عن الكلام ! مسكين ايفان كوزمتش ؟ .. من ذا الذى كان يفكر فى هذا ؟ .. وفاسيليسا ييجورفنا ؟ .. ثم ايفان اجناتتش ، ما كان مأخذهم عليه ؟ .. وأنت ، كيف لم يمسوك بأذى ؟ .. وشفابرين اليكسى ايفانتش ؟ .. رجل طيب مستقيم ! هه ! ولكن هل تصدق ؟ .. اننى حين كنت أتكلم عن ابنة اختى المريضة رمقنى بنظرة كأنما هو يريد أن يطعننى بضربة سكين ! الا أنه لم يقل شيئا .. انه يستحق الشكر على كل حال !

وفى هذه اللحظة ، سمعت صيحات الضيوف المخمورة ، وسمع الأب جراسيم ينادى زوجته .. كان الضيوف يطلبون خمرا . واضطربت الزوجة وقالت : « بترو اندريفيتش ، عد الى بيتك ! .. لايتسع وقتى للبقاء معك ، فان السفلة يسكرون ويعربدون . أرجو أن لايوقعك حظك التعس بين أيدى هؤلاء السكارى ! .. وداعا يابترو اندريفيتش ! ليكن ما يكون ! .. أرجوا أن لايتخلى عنا الله ! »

***

وغابت .. وشعرت بشىء من الطمأنينة ، فاتجهت نحو مسكنى . وفيما أنا أجتاز الساحة الكبرى ، رأيت عددا من « الباشكير » تجمعوا حول المشنقة ، وأخذوا ينزعون عن

أرجل المشنوقين أحذيتهم . **ولم أستطع أن أكظم غيظى الا فى عناء ، وما كان تدخلى يسفر عن أى فائدة على كل حال..** ورأيت لصوصا يطوفون فى الحصن ركضا ينهبون بيوت الضابط . وكانت تنبعث أصوات العصاة من كل مكان وهم يسكرون . عدت الى بيتى ، فرأيت سافيليتش ينتظرنى على عتبة الباب . فلما رآنى هتف : « الحمدلله ! .. كدت أظن أن المجرمين قد قبضوا عليك مرة أخرى . هل تصدق يا عزيزى بترو أندريفتش أن المجرمين قد نهبوا كل ما فى البيت ! .. لم يبق لنا شىء ، لا ملابس ولا أوانى ، ولا شىء البتة . ولكن لاضير ! .. لنحمد الله على أنهم أبقوا على حياتك . هل تعرفت زعيمهم ياسيدى ؟ »

ـ كلا .. من هو ؟

ـ كيف لم تتعرفه ياعزيزى ؟.. **أتنسى ذلك السكير الذى اضطرك أن تهدى اليه معطفك فى النزل** ؟ كان معطفا من جلد الأرنب جديدا كل الجدة ، فتقه هذا **الحيوان** تفتيقا حين ارتداه ؟

شدهت ! .. حقا ان الشبه بين بوجاتشيف وبين ذلك الدليل قوى جدا . **وأيقنت أنه هو ذلك الدليل عينه ، ففهمت لماذا عفا عنى** . ولم يسعنى الا أن أعجب لتعاون الظروف على هذا النحو : معطف صبى أهديه الى متشرد ، فاذا هو يوقينى ميتة شنيعة ! .. سكير من رواد الحانات يحاصر حصوننا ويهز الدولة بأسرها !

سألنى سافيليتش ، وفيا لعاداته : « هل تريد أن تأكل شيئا ؟ .. ليس عندنا ما نطعمه هنا . سأمضى أبحث عن شىء أهيئه لك ! »

وبقيت وحدى ، وأخذت أفكر : **ماذا أفعل ؟** .. ان بقائى

فى الحصن تحت سلطان هذا اللص ، أو ارتباطى بعصابته ، أمران لايتفقان مع صفة الضابط التى أحملها . ان الواجب يقتضينى أن أمضى الى حيث يمكن أن أقدم لوطنى - فى الظروف الحاضره - خدمات تفيده . الا أن قلبى ينصحنى ملحا بأن أبقى الى جانب ماريا ايفانوفنا أدافع عنها وأحميها . ورغم تنبؤى بأن تغيرا سريعا سيطرأ على الموقف من دون ريب ، فاننى لم أستطع أن أمنع نفسى من الارتعاد ، حين فكرت فى الاخطار التى ما زالت ماريا معرضة لها .

وقطع تأملاتى وصول رسول قوزاقى ، هرع يبلغنى أن ((القيصر العظيم)) يستدعينى اليه ! .. فسألته وانا استعد لأن أتبعه : « أين هو ؟ » . فأجاب القوزاقى : « فى بيت الآمر .. ان مولانا - بعد أن تغدى - ذهب الى الحمام ، وهو الآن يستريح . واضح ياصاحب النبالة ، أنه شخص عظيم . لقد تفضل أثناء الطعام ، فأكل خنزيرين مقليين .. وكان حمامه من شدة الحرارة بحيث أن تاراس كوروتسكين لم يستطع أن يطيقه ، فترك الفرشاة لفوما بكبابيفا ، ولم يسترد حالته الطبيعية - برش الماء البارد على جسده - الا بعد مدة طويلة . ويقال ان دلائل عظمة مولانا قد ظهرت منقوشة على صدره ، فعلى أحد طرفى الصدر نسر ذو رأس كبيرة ، كقطعة من ذات الخمسة كوبيكات ، وعلى الطرف الثانى صورته !))

لم أعتقد أن من الضرورى أن أخالف القوزاقى فى رأيه . وتبعته الى بيت الآمر ، وأنا اتخيل ماعسى أن يكون لقائى لبوجاتشيف ، وما عسى أن يؤول اليه هذا اللقاء . ولا بد ان القارىء يفهم بسهولة أننى لم أكن هادئا كل الهدوء .

***

حين وصلت الى بيت الآمر ، كان الظلام قد بدأ يهبط ، وكانت المشنقة المشئومة وضحاياها ترى فى الظلام أشباحا سوداء . وكان جسم الآمرة المسكينة لايزال ملقى تحت درج الباب ، حيث يقف ديدبانان من القوزاق . ودخل دليلى ليؤذن بوصولى . وسرعان ما عاد ، فقادنى الى تلك الغرفة عينها التى ودعت فيها بالأمس ماريا ايفانوفنا وداعا رقيقا .

رأيت أمام عيني منظرا فذا : رأيت بوجاتشيف وعشرة من زعماء القوزاق تحلقوا حول مائدة مفروشة بغطاء ، ومملوءة بالقنانى والأقداح .. كانوا جميعا يرتدون قبعات وقمصانا ملونة . وكانت خدودهم المنتفخة متضرجة بتأثير الخمر . وكانت أعينهم تلمع كالشرارات .. لم أر بينهم شفابرين ، ولا رأيت الوكيل ، هذين الخائنين الحديثى العهد بالخيانة . فلما رآنى بوجاتشيف داخلا هتف يقول : « آه ، صاحب النبالة ! .. أهلا وسهلا ، تفضل واجلس ! »

أفسح لى الضيوف مكانا ، فجلست صامتا الى ركن المائدة . وكان جارى شابا قوزاقيا ، جميلا ، ممشوق القامة، لم يلبث أن سكب لى قدحا من الخمر ، الا اننى لم ألمس القدح البتة . وجعلت أفحص هذا الاجتماع فى كثير من حب الاستطلاع . كان بوجاتشيف جالسا فى مكان الشرف ، متكئا على المائدة ، وقد أسند لحيته السوداء على قبضة يده . كانت قسمات وجهه منسجمة ، لا تخلو من جمال ، ولا توحي بشيء من القسوة . وكان يلتفت كثيرا الى رجل فى

الخمسين من عمره ، يناديه تارة بالكونت وتارة باسم تيموفييتش ، ويكتفى تارة أخرى بأن يناديه : « عماه » .

وكان الجميع يتعاملون كرفاق ولا يبدو عليهم أنهم يشعرون

نحو رئيسهم باحترام خاص . وكانوا يتحدثون عن هجوم الصباح ، وعما سيقومون به فى المستقبل من أعمال . وكانوا لايتحرجون أبدا من معارضة آراء بوجاتشيف . وفي هذا المجلس الحربى ، قرروا أن يتجهوا الى (اورنبورج) ، وهى حركة كانت تنطوى على كثير من الجسارة ، وأوشكت أن تكلل بنجاح مفجع . وقرروا أن يسيروا منذ الغد . وقال بوجاتشيف : « والآن ايها الأخوة ، فلنغن نشيدى المفضل ، قبل ان ننام . ابدأ ياتشوماكوف ! »

فلم يلبث جارى أن أخذ يغنى بصوت كصوت الناى ، أغنية حزينة مما يغنيه ربابنة المراكب . ثم أخذ الجميع يغنون معا :

« على رسلك أيتها الغابة الفسيحة .. لا تحدثى صخبا ،
« فتمنعى الفارس المغوار من الاسترسال فى تفكيره .
« ذلك أننى سأمثل ـ فى الغداة ـ أمام قاض رهيب ،
« أمام القيصر نفسه ! . .
« سيهتف القيصر : قل لى أيها الشجاع، يا ابن الفلاح،
« من كان رفاقك فى النهب ؟.. وهل كانوا كثيرين ؟
« يا قيصراه ، يا أمل جميع المسيحيين !
« سأقول لك الحقيقة كلها : « كان لى أربعة رفاق أمناء :
« الأول هو الليل الحالك .. والثانى خنجر من فولاذ ..
« والثالث جوادى المقدام .. والرابع قوسى المشدود .
« وكانت رسلى نبالا أحمرها بالنار ! »
« وسيجيبنى القيصر ، أمل جميع المسيحيين ، بقوله :
« مرحى أيها الشجاع ، يا ابن الفلاح ..

« لقد عرفت كيف تنهب ، وعرفت كيف تجيب .
« سوف انعم عليك ..
« سوف أنعم عليك بقصر منيف ، فى قلب السهول :
« سوف أنعم عليك .. بمشنقة ! »

***

لا أستطيع أن أصف قوة تأثرى بهذه الأغنية الشعبية المخصصة للمشنقة ، والتى يغنيها أناس أعدوا للشنق . ان الوجوه الرهيبة ، والاصوات المتناغمة ، ورنة الحزن التى يبعثونها فى هذا الكلام المعبر فى حد ذاته .. هذا كله قد بث فى جسمى قشعريرة من رعب حزين . وابتلع الضيوف كأسا أخيرة ، ونهضوا عن المائدة ، واستأذنوا بوجاتشيف .. وأردت أن أتبعهم ، الا أن بوجاتشيف استوقفنى قائلا : **« ابق . أريد أن أكلمك ! »**

وبقينا منفردين .. ودام الصمت بضع لحظات . وكان بوجاتشيف ـ أثناء ذلك ـ يحدق فى ، مغمضا فى بعض الأحيان عينه اليسرى نصف اغماضة . وكان ذلك يكسب وجهه هيئة خبيثة ساخرة ، ثم اذا به ينطلق فى ضحكة بلغ من شدة تعبيرها عن الفرح الصريح ، اننى ـ حين رأيته على هذه الحال ـ أخذت أضحك بدورى دون أن أعرف لماذا .
وقال : « لاشك أن صاحب النبالة يعترف أنه خاف حين وضع رجالى الحبل فى عنقه .. كاد لسانك أن يتدلى نصف قدم !.. كدت تتأرجح فى الفضاء لولا خادمك !.. نعم ، سرعان ما تعرفت عجوزك الهرم . **هل كان يدور بخلدك يا صاحب النبالة ان الرجل الذى قادك الى الفندق ، هو القيصر العظيم نفسه؟** (هنا اكتسى وجهه مسحة رصينة)

لقد أخطأت فى حقى كثيرا ، ولكننى عفوت عنك لكرمك، ولأنك خدمتنى فى اللحظة التى كنت مضطرا فيها الى الاختباء عن عيون أعدائى . ولكن ، انتظر قليلا ، سترى كيف أكافئك يوم أسترد عرشى ! .. هل تعدنى بأن تخدمنى فى حماسة واخلاص ؟ »

وبدا لى سؤال هذا السافل وجرأته على الحق مضحكين، حتى أننى لم أستطع أن أمنع نفسى عن التبسم . فسألنى وهو يقطب حاجبيه : « مم تضحك ؟ .. أتراك لا تعتقد بأننى القيصر ؟ .. أجب بلا تردد ولا مواربة » . فشعرت باضطراب .. كان يستحيل على أن اعترف بهـذا المتشرد ملكا ، والا برهنت على جبن لا يغتفر . وكان من الصعب أيضـا أن أواجهه بأنه لص ، والا عرضت حياتى للخطر . ان الكلام الذى كنت مستعدا لقوله فى لحظات الاستياء الأولى ـ الى جانب المشنقة ، امام الجمهور المحتشد ـ أصبح يبدو لى صلفا لا طائل تحته .. ترددت فى الجواب ، وكان بوجاتشيف ينتظر جوابا وهو متجهم الوجـه . واخيرا تغلب الشعور بالواجب ـ فى نفسى ـ على الضعف الانسانى (اننى لا أتذكر الآن تلك الدقيقة فى سرور عظيم) فالتفت نحو بوجاتشيف أقول : « اسمع ! .. سأقول لك الحقيقة . فكر انت نفسك فى الأمر . كيف أستطيع أن أعترف بأنك قيصر ؟ .. انك رجل ذكى ، وفى وسعك ـ أن أنا زعمت لك ذلك ـ أن تفهم أننى أخادعك ! »

فقال : « من أكون اذن فى نظرك ؟ »

ـ الله أعلم ! .. على أنك ، كائنا من كنت ، تلعب لعبـة خطرة .

فرمانى بنظرة سريعة ثم قال : « اذن انت لا تعتقد باننى

القيصر بطرس فيودوروفيتش ؟.. حسنا ! ولكنك تسلم معى بأن الحظ حليف الشجاع . ألم يحكم جريشكا وتربيبف فى عصره ؟ (١) .. اعتبرنى من تشاء ولكن لا تتركنى . هذا هو المهم !.. اخدمنى فى حماسة واخلاص ، اجعلك ((فيلد مارشال)) واميرا .. ما رأيك ؟))

فأجبت فى عزم وقوة : ((كلا .. اننى انسان شريف ، وقد حلفت يمين الولاء للامبراطورة ، ولا أستطيع أن أخدمك. واذا كنت تريد لى الخير حقا ، فدعنى أمضى الى أورنبورج)) .

فأطرق بوجاتشيف يفكر ، ثم قال : ((هل تعدنى ــ على الأقل ــ اذا انا أطلقت سراحك ، بأن لا تحارب فى صفوف اعدائى ؟)) . فاجبت :

ــ كيف تريد أن أعدك بذلك ؟.. انك لتعرف ــ أنت نفسك ــ ان هذا الأمر ليس منوطا بارادتى . أنت الآن قائد ، وانك لتطلب الى رجالك الطاعة . فكيف استطيع أن أرفض الحرب حين تقتضى الضرورة ان اشترك فيها ؟.. ان حياتى بين يديك ، فان تركتنى شكرتك ، وأن قتلتنى كان حسابك على الله . اما انا ، فلم أقل لك غير الحقيقة !

وبدا على بوجاتشيف ان صراحتى تفاجئه ، فقال وهو يربت على كتفى : ((ليكن ما تريد !.. أنا ان عاقبت كان عقابى صارما ، وان عفوت كان عفوى كاملا .. اذهب الى حيث تريد ، وافعل ما يبدو لك !.. تعال ودعنى فى الغد . والآن امض الى النوم ، فاننى نعس ايضا !))

تركت بوجاتشيف ، وخرجت الى الشارع .. كان الليل هادئا ، وباردا ، والقمر والنجوم تلمع فى السماء ، وتغرق الساحة الكبرى والمشنقة بالنور .. كان كل شىء فى الحصن

(١) الاسم المظنون للمحتال المعروف باسم ((ديمترى الاول المزيف)) ١٦٠٥ ــ ١٦٠٦

يبدو ساكنا . وكانت نوافذ الحانة وحدها مضاءة ، تخرج منها أصوات بعض المتأخرين من اللاهين . **ونظرت الى بيت القس ، فرأيت الأبواب والنوافذ مغلقة .. وان كان كل شيء يبدو فى الداخل ساكنا !**

ووصلت الى مسكنى ، فوجدت سافيليتش فى حالة من القلق العميق ، فلما علم أن حريتى قد ردت الى ، فرح فرحا عظيما . وقال وهو يصلب : « الحمد لله !.. سنترك الحصن منذ الفجر ، ونمضى الى حيث يشاء الله !.. لقد أحضرت لك يا عزيزى شيئا تتعشاه . فتعال كل ، ثم نم الى الصباح نوما هادئا ، كنوم الفأر فى أحضان القش ! » .. فعملت بنصيحته . وبعد أن التهمت الطعام فى شهوة كبيرة ، غفوت على أرض الغرفة محطم الجسم والروح جميعا .

(٩) فراق تحت حكم الظروف !

« أواه ما أحلاه ..
« يوم عرفتك فيه .. يا حبيبتى الجميلة !
« وآه ما أشقانى ، اذ أفارقك الآن .
« لكأننى افارق روحى ! » ـ اغنية

• أيقظنى قرع الطبل بكرة فى الغداة ، فذهبت الى مكان الاجتماع ، فرأيت عصابات بوجاتشيف تصطف عند المشنقة ، التى ما زال ضحايا الأمس معلقين عليها . ورأيت القوازق قد امتطوا خيولهم ، والجنود قد حملوا أسلحتهم ، والرايات تخفق ، وعددا من المدافع ـ بينها مدفعنا ـ قد شدت الى العربات .. ورأيت السكان قد تجمهروا جميعا ينتظرون ـ كذلك ـ خروج الغاصب . ورأيت قوزاقيا واقفا أمام درج الباب ، ممسكا بمقود حصان أصهب رائع من عرق الكرخيز . وتلفت ابحث عن جثمان الآمرة ، فوجدت أنهم قد وضعوه جانبا ، وغطوه بغطاء . واخيرا خرج بوجاتشيف من الدهليز ، فرفع الجمهور قبعاته . وتوقف بوجاتشيف على درج الباب يحيى الناس . وناوله أحد « القدماء » (١) كيسا مملوءا بالدنانير ، فأخذ بوجاتشيف يرميها الى الجمهور بكلتا يديه ، وأخذ الناس يسارعون الى تلقفها متزاحمين ، مصوتين .. واصيب بعض الاشخاص من جراء ذلك بأذى غير يسير . واتى رفاق بوجاتشيف يصطفون حول زعيمهم ، وكان من بينهم شفابرين . التقت نظراتنا ، واستطاع أن يقرأ فى عينى الاحتقار والازدراء ، فأشاح وجهه حانقا ، متظاهرا بالهزء والسخرية . ولمحنى بوجاتشيف بين الجمهور ، فحيانى بحركة من راسه ، ثم نادانى اليه ، وقال :

---

(١) جمع «مقدم» .. وهى رتبة عسكرية ..

ـ اسمع !.. اذهب حالا الى اورنبورج ، وقل للحاكم وسائر القادة أن ينتظرونى هنالك فى غضون أسبوع .. أنصحهم أن يستقبلونى كما يستقبل الأبناء أباهم فى حب وخضوع . وبغير ذلك ، لا يستطيعون أن يوقوا أنفسهم عذابا شديدا .. على الطائر الميمون يا صاحب النبالة !

ثم التفت الى الجمهور ، وقال وهو يشير الى شفابرين : « اسمعوا يا أبنائى ، هذا هو آمركم الجديد ، فأطيعوه فى كل أمر ، وهو المسئول أمامى عنكم وعن الحصن ! »

سمعت هذا الكلام فى هول فظيع . أيصبح شفابرين آمر الموقع ، وتظل ماريا ايفانوفنا تحت سلطانه ؟.. رباه ! ما سيكون اذن من أمرها ؟

ونزل بوجاتشيف عن درج الباب ، واتوه بالحصان ، فامتطاه فى خفة ورشاقة ، دون أن ينتظر معونة القوزافيين اللذين أرادا أن يسنداه.. وفى هذه اللحظة رأيت سافيليتش يترك الصفوف ، ويقترب من بوجاتشيف ممسكا بورقة .. ولم أستطع أن أحزر ما يريد . وسأله بوجاتشيف فى وقار : « ما هذا ؟ »

فأجابه سافيليتش : « تفضل بقراءة الورقة ، فتعلم المسألة ! » .. فتناول بوجاتشيف الورقة ، وظل مدة طويلة يمحصها فى كثير من الجد . ثم سأله : « لماذا خطك ردىء الى هذا الحد؟.. لم تستطع عينانا ان تفكا هذه الكتابة السيئة . أين رئيس أمناء السر ؟ » .

فما ان قال بوجاتشيف ذلك ، حتى تقدم شاب نشيط يرتدى بزة عريف . فقال له الغاصب وهو يناوله الورقة : « اقرأ بصوت مرتفع ! » .. وكنت قلقا ، أتحرق شوقا الى معرفة ما عسى أن يكون سافيليتش قد كتب لبوجاتشيف . وأخذ أمين السر يتهجى جهارا : « ثوبان للمنزل : أحدهما من

قطن ، والثانى من حرير مقلم . المجموع : ٦ روبلات » .

فقال بوجاتشيف وهو يقطب حاجبيه : « ما معنى هذا كله ؟ »

فأجاب سافيليتش بهدوء : « قل له أن يتم القراءة ! »

واستأنف أمين السر يقرأ : « بزة عسكرية من صوف أخضر ناعم ، قيمتها ٧ روبلات .. سروال من صوف أبيض، قيمته ٧ روبلات .. اثنا عشر قميصا من كتان هولندى بأكمامها ، قيمتها ١٠ روبلات . حقيبة تحتوى على عدة تحضير الشاى ، قيمتها روبلان ونصف .. »

فقاطع بوجاتشيف قائلا : « ما هذا الهذر السخيف ؟.. ما شأنى وشأن الحقائب والسراويل ذات الاكمام ! » ..

فتنحنح سافيليتش يريد أن يشرح المسألة ، وقال : « هذه - ان أمرت - قائمة بأشياء سيدى التى نهبها اللصوص » .

فصرخ بوجاتشيف بلهجة متوعدة : « أى لصوص تعنى؟»

- معذرة !.. لقد أفلت هذا الكلام من لسانى .. لا أريد ان أقول اللصوص ، انهم رجالك المغاوير ، قد نهبونا قليلا . لا تغضب ، فلكل جواد كبوه ! .. مره أن يتم القراءة .

فقال بوجاتشيف : « هيا أتم القراءة ! »

واستمر أمين السر يقرأ : « غطاءان ، أحدهما هندى والثانى من قطن قيمتهما ٤ روبلات. معطف من فراء الثعلب مبطن بجوخ قرمزى، قيمته ٤٠ روبلا . ثم معطف من جلد الأرنب ، قدم الى سعادتكم فى الفندق ، وقيمته ١٥ روبلا » .

فصرخ بوجاتشيف وعيناه تقدحان شررا : « ما هذا الهذر ؟ »

أعترف بأننى خفت على خادمى . وقد أراد أن يسترسل فى شروح جديدة ، الا أن بوجاتشيف قاطعه ، وهو ينتزع الورقة من بين يدى أمين السر ويرميها فى وجهه ، « كيف

تجرؤ على ازعاجى بمثل هذه الترهات، ايها العجوز المجنون. نهبوك ؟ !.. كلام جميل . ألا تحمد الله ، أيها العجوز الهرم ، على أنك لم تشنق ، أنت وسيدك ، الى جانب هؤلاء الخونه ! .. معطف من جلد الارنب ! .. أريد أن أريك معطفا ! .. **هل تعلم أن فى امكانى أن آمر بسلخك حيا ، وبدبغ جلدك ليصنع منه معطف ؟ »**

فأجاب سافيليتش : « انك تعلم أننى خادم ، وأن على أن أحافظ على أموال سادتى » .

وبدأ بوجاتشيف فى وضع من يريد أن يحافظ على وقاره وجلاله ، فأشاح بوجهه ، ومضى ـ دون ان يضيف الى ماقاله كلمة واحدة ـ يتبعه شفابرين و «القدماء» . وغادرت العصابة الحصن فى نظام تام ، وتبعها الشعب يريد أن يشيع بوجاتشيف . وبقيت وحيدا مع سافيليتش . وكان المسكين لا يزال ممسكا « بالقائمة » يتأملها فى أسف عميق .. لقد أراد أن يستفيد من حسن التفاهم الذى ساد بينى وبين بوجاتشيف ، الا انه لم ينجح فى هذا المشروع المعقد. وأخذت ألومه على فرط اخلاصه هذا . ولم أستطع أن أمنع نفسى عن الضحك . فقال : « اضحك ما شئت يا سيدى ، ولكن سترى حين ينبغى لنا أن تعوض عن هذه الاشياء ، أن الأمر ليس مضحكا الى هذا الحد ! »

***

وسارعت الى بيت القس آملا أن أرى ماريا ايفانوفنا . فأبلغتنى زوجته نبأ حزينا . **قالت ان ماريا ايفانوفنا أصيبت بحمى شديدة فى الليل ، ففقدت وعيها ، وكانت تهذى .** وأدخلتنى زوجة القس الى غرفة ماريا ايفانوفنا ، فاقتربت من سريرها على مهل . ان التغير الذى ألم بملامح وجهها



بصرت بقوقازى بقى وراء رفاقه ، فهممت بان
أضربه بسيفى ، لولا انه خلع قبعته..(ص ١٠٨)

ليصعقنى دهشة .. لم تستطع المريضة أن تعرفنى .. بقيت أمامها مدة طويلة ، دون أن أصغى الى ما يقوله الأب جراسيم وزوجته الطيبة ، وأغلب الظن انهما كانا يحاولان مواساتى . وحاصرتنى أفكار سود : ان وضع هذه اليتيمة المسكينة ، وبقاءها وحيدة بين عصاة أشرار ، ثم عجزى عن القيام بشىء فى سبيلها .. ان ذلك كله ليملأنى رعبا . **على أن شفابرين هو الذى كان يقلقنى أكثر من أى شىء آخر !** .. لقد أولاه الغاصب سلطات واسعة ، وأصبح آمر الموقع الذى تقيم فيه هذه الفتاة البائسة ، التى يكرهها ويحقد عليها . فهو اذن قادر على أن يفعل كل شىء . ماذا يجب أن أعمل ؟ .. كيف أساعد ماريا ايفانوفنا ؟ كيف أنقذها من يدى هذا الفاجر ؟ .. **لم يبق الا وسيلة واحدة : أن أمضى الى أورنبورج فى أقرب وقت ، لأعجل تحرير (بيلوجورسكايا) ، وأساهم فى ذلك بكل ما أوتيت من قوة !** .. عزمت أمرى على الذهاب الى اورنبورج حالا ، فاستأذنت القس وآكولينا بامفيلوفنا ، وأوصيتهما خيرا بتلك التى أعدها منذ الآن زوجة لى . وتناولت يد الفتاة البائسة ، فقبلتها مغرقا اياها بالدموع .

وقالت امرأة القس وهى تشيعنى الى الباب : « وداعا يابترو اندريفتش ، قد نلتقى فى أيام أفضل . لا تنسانا ، واكتب الينا مااستطعت ! .. لم يبق للمسكينة ماريا ايفانوفنا غيرك نصيرا وحاميا ! »

وخرجت من الساحة الكبرى ، وتوقفت لحظة أحيى المشنقة ، ثم تركت الحصن متجها نحو (اورنبورج) ، يصحبنى سافيليتش الذى يفعل كل ما أفعل . وكنت أسير غارقا فى تأملاتى ، حين سمعت ورائى – فجأة – وقع حوافر حصان . فالتفت فاذا بقوزاقى قادم من الحصن يعدو ورائى على حصان ، وقد أمسك بلجام حصان آخر ، وجعل يشير الى .

فتوقفت عن المسير ، وما لبثت ان عرفت فيه « الوكيل » . فلما وصل الى ، نزل عن حصانه ، ومد الى لجام الحصان الآخر ، وهو يقول : «ان جلالته ـ ياصاحب النبالة ـ يهدى اليك حصانا ، «ويخلع» عليك معطفا ! » . . وكان على سرج الحصان معطف من جلد الخروف !

وأضاف وهو يتهته ، قائلا : « ثم انه أهدى اليك كيسا من المال ، الا اننى أضعته فى أثناء الطريق ، فأرجو أن تصفح عنى ! » . فرماه سافيليتش بنظرة ارتياب ، ودمدم قائلا : « اضعتها فى أثناء الطريق ؟ . . فما الذى يرن اذن فى صدرك ؟ . . الا تستحى ؟ » . فأجاب الآخر معترضا دون أن ينتابه اى اضطراب : « مايرن فى صدرى ؟ . . عفا الله عنك أيها الشيخ ! . . ان ما تسمعه هو رنين اللجام لا رنين كيس ! »

فقطعت المناقشة بقولى : « حسنا . . اشكر عنى من ارسلك . أما الكيس الضائع ، فحاول أن تجده ، وليكن هدية منى اليك ! » . فقال وهو يدور بحصانه : « الف شكر ياصاحب النبالة . سأدعو لك بالخير على الدوام » .

وما ان قال هذا الكلام ، حتى قفل يعدو خببا ، وقد وضع احدى يديه على صدره . ثم اختفى فى طرفة عين . فارتديت المعطف ، وامتطيت صهوة جوادى ، واضعا سافيليتش ورائى . وقال الرجل العجوز : « أرايت ياسيدى ؟ . . ان تقديم قائمة الحساب لهذا الحقير قد آتى أكله ! . . لقد أنبه ضميره وندم على صنعه ! . . ورغم ان هذا الحصان الباشكيرى ذا القوائم الطويلة ، وهذا المعطف المصنوع من جلد الخروف ، لاتساوى قيمتهما نصف قيمة ما سرقه منا اللصوص ، وما طاب لك ان تهديه اليه بارادتك ، فقد يفيداننا . والحاذق من يحصل من دينه الميت اى مبلغ يقدر على تحصيله ! »

(١٠) حصان أورنبورج

« بعد أن احتل الجبال والوديان ،
« ألقى نظرة من عل ،
« كالنسر ، على المدينة ..
« وأمر باقامة خيمة وراء المعسكر ،
« تخبأ فيها المدافع ، لتقاد ليلا
« الى امام المدينة » ـ
كيراسكوف

• **فلما** وصلنا الى اورنبورج ، رأينا جمهورا من المحكومين بالاشغال الشاقة ـ الذين حلقت رؤوسهم وشوهت وجوههم بملاقط الجلادين ـ يعملون فى تحصين المدينة ، تحت رقابة عدد من جنود الموقع . فكان بعضهم ينقل ـ على عربات صغيرة ـ «الصوالة» التى تملأ الوادى ، وبعضهم الآخر يحفر الارض .. وكان عدد من البنائين يأتى الى الاسوار بالآجر ، يقوى متاريس المدينة .

واستوقفنا الحراس على الأبواب ، وطلبوا الينا جوازات السفر . فلما علم الرقيب أننى آت من (بيلوجورسكايا) ، مضى بى الى بيت القائد رأسا . ووجدت القائد فى حديقته ، يفحص أشجار التفاح التى عرتها أيام الخريف ، ويغطيها بالقش فى كثير من العناية ، مستعينا ببستانى عجوز كان وجهه يشرق بالطمأنينة والعافية والبساطة . وظهرت عليه امارات السرور لرؤيتى مرة أخرى ، **وأخذ يسألنى عن الأحداث الفظيعة التى شهدتها ، فقصصت عليه كل شىء تفصيلا** . فأصغى الى كلامى فى اهتمام كبير ، مع استمراره على قطع الأغصان اليابسة . ثم قال حين أنهيت قصتى الحزينة :

ـ مسكين ميرونوف ، اننى أرثى له ! .. كان دابتا ممتازا

.. وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتازة . ما ابراها فى تبخ الكماة ! .. وماذا هل بماشا ، ابنة الدابت الرئيس ؟ (١)

فأجبت بأنهـا بقيت فى الحصن ، فى كنف امرأة القس . فقال «آى ، آى !.. لايمكن الائتمان الى هؤلاء اللسوص ! .. ما مسير هذه البنت المسكينة ؟ » (٢)

فأجبت بأن بيلوجورسكايا ليست بعيدة ، وأن سـعادته قدلايتخلف عن ارسال فرقةاليها لتحرير السكان المساكين. فهز القائد اللواء راسه ، وبان على وجهه أنه غير مطمئن . ثم قال : « سنرى ، سنرى .. سنتكلم فى هذا من بعد . والآن ادعوك الى تناول الشاى. سيجتمع اندى مجلس الهرب بأد كليل ، وفى امكانك أن تؤتينا اندئذ مألومات دكيكة أن هـذا الهكير بوجاتشيف وأن جيشـه .. والآن يمكنك أن تذهب لترتاه كليلا . » (٣)

ومضيت الى المسكن الذى اعدوه لى ، فرأيت سافيليتش بسبيل تهيئة اقامتنا فيه . وكنت فى حالة فظيعة من القلق وفراغ الصبر . وفى وسع القارىء أن يتخيل بسهولة أننى لم أتخلف عن حضور المجلس الذى كان مقدرا أن يكون له فى مصيرى تأثير كبير . فوصلت الى بيت اللواء فى السـاعة المحددة. فوجدت هنالك أحد موظفى المدينة ، ومدير الجمرك ،

---

(١) « كان ضابطا ممتازا ، وكانت مدام ميرونوف سيدة ممتـازة . ما أبرعها فى طبخ الكمأة !.. وماذا حل بماشا ، ابنة الضابط الرئيس ؟ »

(٢) « لا يمكن الاعتماد على هؤلاء اللصوص !.. ما مصير هذه البنت المسكينة ؟ »

(٣) « سنرى ، سنرى .. سنتكلم فى هذا من بعد . والان أدعوك الى تناول الشاى . سيجتمع عندى مجلس الحرب بعد قليل ، وفى امكانك أن تعطينا عندئذ معلومات دقيقة عن هذا الحقير بوخاتشيف وعن جيشه .. والان يمكنك أن تذهب لترتاح قليلا » .

ووجدت عجوزا قصيرا بطينا ، يرتدى ثوبا ملونا من «البروكار» اللماع ، أخذ يسألنى عن مصير ايفان كوزمتش ويسميه « اشبينه » . وقاطع قصتى عدة مرات بأسئلة وملاحظات عميقة ، ان لم تدل على أنه رجل مثقف فى علم الحرب ، فهى تدل على أنه ذو فكر ثاقب وذكاء مفطور . وفى أثناء ذلك ، توافد سائر المدعوين . فلما أخذ الجميع أماكنهم ، وقدم الى كل منهم قدح من الشاى ، أخذ القائد يعرض الموقف فى وضوح وتفصيل . وقال اخيرا :

— والآن أيها السادة ، يجب أن نقرر : هل نصطنع مع العصاة أسلوب الهجوم أم أسلوب الدفاع ؟ .. أما الهجوم فانه يتيح لنا ان نأمل فى القضاء على العدو قضاء أسرع ، وأما الدفاع فهو أكثر ضمانا وأقل خطرا .. فعلينا اذن بالاقتراع ، وفقا للترتيب القانونى ، أى ابتداء بالضباط الصغار .. ياحضرة حامل العلم ، تفضل بابداء رأيك !

فنهضت . . وبعد أن وصفت بوجاتشيف وعصابته بكلمات موجزة ، اكدت أن هذا المحتال لايستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم قطعات نظامية .. ولاحظت على المستمعين انهم لايوافقون على رأيى هذا البتة . وادركت ان الموظفين لايرون فى شخصى الا شابا جريئا متهورا . وارتفعت فى الحفل أصوات دمدمة ، حتى لقد سمعت احدهم يقول بصوت منخفض : « هذا طفل غر » . والتفت القائد اللواء نحوى مبتسما يقول : « ياحضرة الضابط حامل العلم . . فى مجالس الحرب ترتفع الأصوات الأولى دائما فى تأييد الأعمال الهجومية . هذا امر طبيعى ! .. والآن فلنستمر فى جمع الآراء . ما رأيك ياحضرة المستشار ؟ »

فسارع العجوز القصير — الذى يرتدى ثوبا من البروكار

ـ وأفرغ فى جوفه البقية الباقية من قدحه الثالث من الشاى الممزوج بكمية كبيرة من الكحول ، ثم قال : «أعتقد ياصاحب السعادة ، أن الأمر ليس أمر هجوم ولا دفاع » . فرد عليه اللواء ، دهشا : « ولكن ياحضرة المستشار ، ان الحرب لاتعرف غير اسلوبين : اسلوب الدفاع وأسلوب الهجوم » .

ـ جربوا ، ياصاحب السعادة ، أسلوب « الافساد » !

ـ بخ بخ ! .. انه لرأى يفيض بالحكمة ! .. ان للحرب اسلوبا ثالثا هو «أسلوب الافساد» . سننتفع بنصائحك ، وسنعلن ان من يأتينا برأس هذا السافل ، يتناول مكافأة قدرها سبعون روبلا ، بل مائة روبل . نأخذها من المخصصات السرية .. !

فقاطعه مدير الجمرك قائلا : « اقبل ان يسمولى شاه كرخيزية لامستشارا ، اذا لم يسلمنا هؤلاء المجرمون زعيمهم مكتوف اليدين والرجلين !» . فأجاب اللواء قائلا : « سنفكر فى هذا الامر ، وسنتحدث فيه مرة أخرى . وانما ينبغى لنا ـ على اية حال ـ أن نتخذ بعض التدابير العسكرية . ايها السادة ، هلا ادليتم بآرائكم وفقا للترتيب التصاعدى ؟ »

***

وجاءت آراؤهم جميعا تعارض رأيى ، وذكروا ان القطعات ليست مأمونة الجانب ، وان الظروف متقلبة ، وان الحذر واجب .. الى آخر ما هنالك . **لقد كانوا يعتقدون جميعا ان بقاءنا فى عصمة المدافع ـ وراء الاسوار الصخرية العالية ـ أسلم عاقبة من الخروج الى الفلاة.** واخيرا ، هز اللواء رماد غليونه ، بعد أن سمع جميع الآراء ، وألقى الخطاب التالى : « ايها السادة ، ارانى مضطرا الى التصريح بأننى شخصيا اوافق على راى حامل العلم موافقة تامة ، لان هذا الرأى

يستند الى جميع قواعد الخطط الحربية الصحيحة التى تؤثر الاعمال الهجومية على الاعمال الدفاعية دائما ! »

وهنا توقف عن الكلام ، وأخذ يحشو غليونه بالتبغ . وسررت بكلامه هذا الذى تملق كبريائى، فألقيت نظرة شامخة على الموظفين .. وكانوا يتهامسون وقد بدا عليهم القلق والامتعاض.. وأردف اللواء يقول ، وهو يطلق زفرة عميقة ، ويرسل الى السقف سحابة كثيفة من الدخان : « **الا اننى — ايها السادة — لا أجرؤ على أن آخذ على عاتقى مثل هذه التبعة** . فالأمر يتعلق بسلامة هذا الاقليم ، وقد عهدت الينا بها مولاتنا الامبراطورة ، أمنا الرؤوم ! .. ولهذا السبب ، أنضم الى الاغلبية التى ارتأت ان الخطة الأسلم عاقبة ، والأقل خطرا ، هى ان ننتظر العدو فى داخل المدينة ، وأن نصد الهجوم بالمدفعية ، وبالخروج اليه — عندئذ — اذا امكن ذلك ! »

ورأيت الموظفين يرشقوننى بنظرة ساخرة بدورهم .. وانتهى الاجتماع .. واستأت من ضعف هذا المحارب القديم، الذى قرر — على خلاف آرائه الشخصية — ان ينقاد لرأى أناس جهلة تعوزهم الخبرة .

وما أن انقضت على هذا الاجتماع بضعة أيام ، حتى علمنا أن بوجاتشيف يقترب من (اورنبورج) وفقا لوعده .. ورأيت جيش العصاة من أعلى أسوار المدينة . ولاحظت أن عددهم قد زاد عشرة أضعاف ما كانوا يوم الهجوم الاخير الذى شهدته ، وانهم يملكون مدافع جديدة ، مما استولى عليه بوجاتشيف من الحصون الصغيرة التى وقعت فى قبضته .. وفكرت فى قرار المجلس العسكرى ، فقدرت أننا سنظل سجناء وراء أسوار (اورنبورج) مدة طويلة ، فكدت أبكى حنقا .

ولن أصف حصار اورنبورج ، فهذا من شأن التاريخ ، ولا يدخل فى قصة أسرة . وحسبى أن أقول أنه كان شؤما على السكان ، بسبب قلة تبصر السلطات . فقد عانى منه السكان من الجوع وسائر أنواع الكوارث .. وأصبحت الحياة فى اورنبورج بشعة كريهة ؟.. كان السكان يتذمرون من غلاء المعيشة ، وكان غلاء فظيعا والحق يقال . وسرعان ما اعتادوا على القنابل — التى كانت تسقط أحيانا فى باحات بيوتهم — حتى ان الهجمات التى كان بوجاتشيف يشنها أصبحت لا تلفت انتباه الناس . وكنت اختنق ضجرا ، والوقت يجرى بطيئا ثقيلا .. لم أكن أتلقى أية رسائل من بيلوجورسكايا ، فلقد كانت الطرق كلها مقطوعة . وأصبح انفصالى عن ماريا ايفانوفنا لا يطاق .. كان جهلى كل شىء عن مصيرها يعذبنى أكثر من أى شىء آخر . وكانت تسليتى الوحيدة هى النزهة على ظهر الحصان ، فقد كنت أملك — بفضل بوجاتشيف — جوادا ممتازا ، كنت اقاسمه طعامى الزهيد ، وأخرج به من المدينة فى كل يوم .. اتبادل مع فرسان العدو طلقة نار . وكان تبادل الطلقات هذا ينتهى — عادة — بنصر العصاة الذين لم يكونوا يشكون جوعا ولا عطشا ، ولا ضعفا فيما يمتطون من دواب !

كانت فرقة الفرسان الهزيلة — التى نملكها — لا تستطيع أن تصمد لهم ، ولا أن تتغلب عليهم . وكانت مدفعيتنا الجائعة تخرج بدورها فى بعض الاحيان ، الا أن عمق طبقة الثلج المتراكم على الارض لم تكن تتيح لها التغلب على فرسان العدو المبعثرين . فكانت المدفعية تلقى قذائفها عبثا من أعلى الاسوار ، حتى اذا خرجت الى ميدان القتال ، غاصت فى الثلج ، ولم تستطع التقدم بسبب ضعف الخيل التى تجرها .

تلك كانت خطتنا الحربية !.. وذلك كان ما اسماه موظفو (اورنبورج) بالحكمة والحذر والتبصر !

وفى ذات يوم ، بينما نحن نشتت ونصد قطعة كبيرة من قطاعات العدو ، بصرت بقوقازى بقى وراء رفاقه ، فهممت بأن أضربه بسيفى التركى ، لولا انه خلع قبعته فجأة ، وهتف بى : « مرحبا بترو اندريفتش .. كيف حالك ؟» .. فعرفت فيه الوكيل ، وسررت برؤيته . وقلت : « مرحبا بك يا ماكسيمتش ، هل تركت بيلوجورسكايا منذ مدة طويلة ؟»

— كلا ياعزيزى بترو أندريفتش .. كنت فيها أمس ، وأنا أحمل رسالة اليك !

فصحت وقد احمر وجهى من فرط الانفعال : « أين هى ؟ »

قال وهو يضع يده على صدره : « **هى معى ، وقد وعدت بالاشا أن أوصلها اليك بأية وسيلة !** » . قال هذا ومد الى ورقة مطوية ، ثم مضى يعدو .

وفضضت الرسالة ، فقرأت فيها الاسطر التالية وأنا ارتجف :

« لقد شاء الله ان يحرمنى ابى وامى دفعة واحدة ، ولم يبق لى على الارض أهل ولا من يحمينى . وانما أكتب اليك الآن ، لعلمى بأنك كنت تبدى اهتماما بى ، ولأنك اهل لمعونة جميع الناس . أرجو من الله أن تصل اليك هذه الرسالة بوسيلة من الوسائل . وقد وعد ماكسيمتش بأن يسلمك اياها . لقد سمعته « بالاشا » يقول انه كثيرا مايراك حين تخرج من الاسوار ، وانك لا تحافظ على نفسك ، **فكأنك لا تفكر فى أولئك الذين يدعون الله ليل نهار ان يحفظك ويصونك ، والدموع تملأ مآقيهم .**

« لقد ظللت مريضية خلال مدة طويلة . وحين أبللت من مرضى ، جاء اليكسى ايفانتش – الذى حل محل المرحوم والدى – فأجبر الأب جراسيم على أن يسلمنى اليه ، مهددا اياه ببوجاتشيف . فأنا أسكن الآن منزلنا ، الا أننى مراقبة، وألكسى ايفانتش يحملنى على الزواج به ، ويدعى أنه أنقذ حياتى بسكوته على كذب آكولينا بامفيلوفنا ، التى زعمت للمجرمين أننى ابنة أخيها . **ولكن الموت أسهل على من الزواج برجل مثل اليكسى ايفانتش** .. انه يعاملنى معاملة قاسية ، ويهددنى بأنه سيقودنى الى معسكر اللص ، لألقى هناك المصير الذى لقيته ليزافنا خارلوف ، ان لم أرجع عن قرارى وأقبله زوجا . وقد طلبت اليه أن يدعنى أفكر فى الامر ، فقبل أن ينتظر ثلاثة أيام أخرى ، حتى اذا لم أرتضه بعلا فى نهاية هذه الأيام الثلاثة ، لم يعف عنى البتة .

« يا عزيزى بترو اندريفتش .. انك الشخص الوحيد الذى يمكن ان يحمينى ، وأن يعمل شيئا فى سبيل بائسة مسكينة .. اطلب الى اللواء ، والى جميع القادة، أن يرسلوا الينا نجدة بأقصى سرعة ممكنة ، وتعال أنت اذا أمكن .

يتيمتك المخلصة . ماريا ايفانوف »

كدت أجن لدى قراءة هذه الرسالة . وعدت الى المدينة لا اشفق على حصانى المسكين من وخزات المهاميز . وجهدت أثناء الطريق أن أهتدى الى وسيله أنقذ بها هذه الفتاة الشقية ، ولكن دون جدوى . فلما وصلت الى المدينة ، اتجهت الى بيت اللواء رأسا ، ومرقت الى غرفته كالسهم .

❊❊❊

كان اللواء يسير فى طول الغرفة وعرضها، وهو يدخن غليونه، فلما رآنى أدخل ، توقف عن المسير .. ولعله دهش لما رأى

فى وجهى من شرود ، وسألنى - على كل حال - فى غير قليل من اللطف والرفق ، عما أتى بى اليه على هذا الوجه من السرعة ..

فقلت : « اننى اتجه اليك ، يا صاحب السعادة ، كما يتجه ابن الى أبيه . أتوسل اليك أن لا تمنع عنى حمايتك .. ان المسألة تتعلق بسعادة حياتى كلها ! »

فقال العجوز مضطربا : « ماهنالك يا عزيزى ؟ .. ماذا أستطيع أن أعمل فى سبيلك ؟ .. قل ! »

- تستطيع يا صاحب السعادة أن تأمر لى بقطعة من الجنود ، وبخمسين قوزاقيا ، امضى على رأسهم لأطهر حصن (بيلوجورسكايا) !

فظل اللواء يتفرس فى ، ولعله اعتقد اننى فقدت صوابى - وهو فى الحق لم يخطىء كثيرا - ثم قال أخيرا : « ما هذا الكلام ؟ .. تطهر حصن بيلوجورسكايا ؟ » . فأجبت فى حماسة : «أتعهد لك بالنصر ، دعنى أمضى! ..» فقال وهو يهز رأسه : « كلا أيها الشاب .. ان العدو يستطيع - فى مسافة بعيدة كهذه - ان يقطع جميع طرق المواصلات ، وأن يحتل النقطة «الستراتيجية» الأساسية ، فيصل الى نصر كامل . وما دامت المواصلات مقطوعة .. »

وهنا عرانى الخوف ، اذ رأيته يعالج أمورا ستراتيجية ، فقاطعته قائلا : « ان ابنة الضابط الرئيس ميرونوف قد بعثت الى برسالة تطلب فيها أن أهب الى نجدتها ، فان شفابرين يحملها على الزواج به ! »

- صحيح ؟ .. آه من شفابرين هذا ! .. انه عاهر كبير . ان وقع يوما فى قبضتى ، فسأقضى عليه بالموت ، ثم أقتله

رميا بالرصاص فوق اسوار الحصن .. **ولكن الى أن يحين الحين فلنتجمل بالصبر !**

فصحت وقد خرجت عن طورى : « الصبر ؟.. ولكنه يكون - أثناء ذلك - قد تزوج ماريا ايفانوفنا ! » . فاعترض اللواء يقول : « ليس هذا بالفاجعة العظمى .. **ان زواجها بشفابرين - الى أن يحين الحين - خير لها وأبقى ، لأنه يحميها .. حتى اذا قتلناه لم تعدم من يخطبها !** ان النساء الجميلات لا يبقين عوانس مدة طويلة .. والوقوع على زوج أسهل على الارملة منه على الفتاة العذراء ! »

فقلت وأنا أرغى وأزبد حنقا : « اننى أفضل أن أموت على ان أتركها لشفابرين ! » . فقال الرجل العجوز : « ها ! الآن فهمت .. **انت اذن تحب ماريا ايفانوفنا ؟ هذا شيء آخر ، مسكين ايها الشاب !..** ولكننى لا استطيع أن آمر لك بقطعة من الجنود ، وبخمسين قوزاقيا !.. هذا أمر خطر ، لا أستطيع ان أتحمل تبعته » .. فخفضت رأسى ، وقد أخذ منى اليأس مأخذه ، وسيطر على كرب شديد . وفجأة خطرت على بالى فكرة .. وسيرى القارىء ما هى هذه الفكرة ، حين يقرأ الفصل التالى ، كما أن الروائيون يقولون فى الزمان القديم .

١١ ـ عند العصـــاة

« كان الاسد ـ فى تلك اللحظة ـ
« قد شبع ، مع أنه وحش ضار ..
« وسأله بصوت رقيق ناعم :
« ماذا أتيت تصنع فى عرينى ؟ »

آ . سوماروكوف

• تركت المـواء وهرعت الى منـزلى ، فاسـتقبلنى سافيليتش بديباجته المعتادة : « اية لذة تجـد فى مقـارعة هؤلاء اللصوص ؟ .. ليس هذا شان سيد مثلك ! .. ان الكارثة تأتى على حين غفلة ! ستموت بلا جاه ولا مجـد ! .. أأنت تحـارب الاتراك أو السويديين ؟ .. انه لأثم ان يدور على لسانى ذكر هؤلاء الذين نمضى الى قتالهم ! » . فقـاطعت خطابه بسؤاله عن قدر المال الذى أملك ، فأجاب وقد ظهرت على وجهه علائم الارتياح : « تملك قدرا لا بأس به .. صحيح أن اللصـوص لم يدعوا ركنـا دون أن ينبشوه ، الا أننى استطعت أن أخفى قدرا من المال غير يسير ! »

قال ذلك وأخرج من جيبه كيسا مملوءا بالنقود .. فقلت : **« حسنا يا سافيليتش .. اعطنى نصف هذا المال ، وخـذ الباقى ، فاننى ذاهب الى بيلوجورسكايا ! »**

قال العجوز الطيب بصوت مرتجف : « ألا تخـاف الله يابنى ؟ .. الى أين تريد أن تمضى فى هذه الظروف التعيسة ، واللصوص يحرسون جميع الطرق ؟ .. اذا كان لا يهمك أمر نفسك ، فارفق بوالديك على الأقل ! .. الى أين أنت ذاهب ؟ ولماذا ؟ .. انتظر قليلا ، فسيأتى الجيش عما قليل ، فيقبض على جميع المجرمين ، وتستطيع ـ يومئذ ـ أن تمضى الى حيث تشاء ! »

بيد أن قرارى كان قاطعا لا راد له . فقلت: « ان الوقت

أضيق من أن يتسع للأخذ والرد . يجب أن اسافر ، فلا أستطيع البقاء هنا .. لا تحزن يا سافيليتش ، فان الله رحيم ، وقد نلتقي مرة أخرى ... لا تضن على نفسك بشيء ، ولا تقتصد فى انفاق المال !.. اشتر لنفسك ما أنت فى حاجة اليه ، ولو اضطررت ان تدفع الثمن أضعافا مضاعفة . اننى أهب لك هذا المال . واذا لم أعد خلال ثلاثة أيام .. » .

فقاطعنى سافيليتش قائلا :

— ماذا تقول يا سيدى ؟.. لن أدعك تسافر وحدك !.. لا تطلب الى هذا ، ولو فى المنام . **ان كنت قد أزمعت سفرا، فأنا رفيقك ، ولو اضطررت أن امضى سيرا على الاقدام . لن أتركك!..** أبقى وراء سور من صخر ، وانت فى الفلاة؟.. كلا يا سيدى ، اننى لم أجن بعد . أفعل ما شئت يا سيدى، فلن أتخلف عنك !

وكنت أعرف بالتجربة ، أن المناقشة مع سافيليتش ضرب من العبث . فأذنت له ان يمضى يهيىء حاجات السفر . وما هى الا نصف ساعة ، حتى كنت على صهوة جوادى ، وحتى كان سافيليتش يمتطى كديشا صغيرا هزيلا أعرج ، كان أحد سكان المدينة قد تنازل عنه ، لأنه اصبح لا يملك ما يقيم به أوده .

ووصلنا الى أبواب المدينة ، فتركنا الخفراء نمر . وغادرنا (اورنبورج) .. وكان الظلام يهبط قليلا ، **والسبيل الى (بيلوجورسكايا) يمر ببلدة (بردسكايا) ، عرين بوجاتشيف** .. وقد أمحت معالم الطريق تحت الثلج ، الا أن الارض كلها كانت تحمل آثار حوافر الخيل ، التى كانت تتجدد فى كل يوم . وكنت أعدو خببا ، وسافيليتش لا يستطيع أن يتبعني — من بعيد — الا في كثير من العناء ، ولا ينقطع عن

الهتاف بى : « لا تسرع كل هـذا الاسراع يا مولاى !.. أناشدك المسيح ، لا تسرع كل هذا الاسراع !.. ان كديشى الهالك لا يستطيع أن يساير عملاقك ذا القوائم الطويلة .. ثم علام هذه السرعة ؟ أنحن ذاهبان الى عرس ؟.. اننا معرضان – فى كل لحظة – لضربة فأس.. بترو اندريفتش ، يابنى .. بترو اندريفتش !.. رباه ! ان مولاى الصغير يسعى الى حتفه ! »

وسرعان ما تراءت لنا أنوار (بردسكايا) ، فاقتربنا من الوديان التى تحمى البلدة حماية طبيعية . وكان سافيليتش لا يزال يتبعنى مرددا عويله ونحيبه .. وكنت آمل أن أدور حول البلدة ، دون ان يلحق بنا أذى ، ولكننى بصرت فجأة – على ضوء الشفق – بخمسة من « الموجيك » مسلحين بدبابيس(١) .. وكان هؤلاء طليعة الحرس على عرين بوجاتشيف . فلما نادونا – وكنت لا أعرف كلمة السر – حاولت أن أجتازهم صامتا، الا أنهم سرعان ما أحاطوا بى والتفوا حولى . وأمسك أحدهم بلجام حصانى ، فسللت سيفى ، وهويت به على رأسه ، فترنح وترك لجام حصانى ، برغم أن قبعته قد صانت رأسه من الأذى . واضطرب رفاقه فتراجعوا ، فانتهزت هذه الفرصة وهمزت حصانى ، وعدوت مسرعا . وكان يمكن أن يحمينى ظلام الليل الهابط من كل أذى ، الا أننى التفت ورائى ، فلم أر سافيليتش .. لم يستطع العجوز المسكين – وهو على ظهر كديشه الاعرج – أن يفلت من أيدى اللصوص .. ما العمل؟ انتظرت بضع لحظات ، حتى اذا أيقنت أنهم قد قبضوا عليه ، قفلت راجعا ، أسرع الى نجدته .

فلما اقتربت من الوادى ، سمعت لجة من بعيد ، وسمعت

---

(١) الدبوس من ادوات الحرب كانت تشبه الهراوة بيد طويلة ..

جعجعة وصوت سافيليتش ، فسارعت خطو حصانى . وما هى الا برهة ، حتى رأيتنى بين رجال الحرس من «الموجيك»، الذين أوقفونى منذ لحظات .. لقد أنزلوا سافيليتش عن كديشه ، وهموا ان يشدوا وثاقه . **فلما رأونى، اندفعوا الى وهم يصرخون ، وأنزلونى عن حصانى فى طرفة عين .** وصرح لى أحدهم - وهو رئيسهم فيما يظهر - انه سيقودنا الى القيصر ، ثم أضاف الى ذلك قوله : « ومولانا هو الذى سيقرر هل تشنقان على الفور ، أو تمهلان حتى يلوح الفجر ! »

وكما فعل سافيليتش ، لم أظهر أية مقاومة . وقادونا منتصرين مظفرين .

***

اجتزنا الوادى . ودخلنا البلدة .. كانت البيوت كلها مضاءة ، وكنت تسمع صخبا وجلبة فى كل مكان . ولقيت فى الطريق طائفة كبيرة من الناس ، ولكن لم يبصر بنا أحد من فرط الظلام ، ولم يعرف أحد أننى ضابط من (اورنبورج) . وقادونا رأسا الى عزبة (اى : دار) تقوم عندما ملتقى عدد من الشوارع، ويحرس مدخلها عددمن براميل الخمر ومدفعان .

وقال أحد الموجيك : « هو ذا القصر .. سنبلغ القيصر أمركما » . ثم دخل .. ونظرت الى سافيليتش ، فاذا العجوز المسكين يصلب ويصلى بصوت خافت . وانتظرنا مدة طويلة ، عاد الموجيك بعدها يقول : « **أدخل !.. لقد أمر مولانا بادخال الضابط** » .

ودخلت العزبة ، أو القصر كما يسميه الفلاحون .. كان يضىء الغرفة قنديلان ، وقد فرشت جدرانها بورق ذهبى اللون . وكان كل ما عدا ذلك عاديا مما يوجد فى أية عزبة ،

كالمقاعد ، والمنضدة ، والمغسلة المشدودة بحبل ، والمنشفة المعلقة بمسمار ، والمدفأة المزين سطحها بآنية من الآجر . وكان بوجاتشيف جالسا فى وقار ، تحت الأيقونات ، وقد ارتدى قفطانا أحمر ، وكسى رأسه بقبعة عالية ، ووضع يده على خصره . وكان عدد من كبار أنصاره يحف به ، مصطنعا نوعا من الذل الكاذب ، والخضوع الزائف .. كان واضحا أن وصول ضابط من (اورنبورج) قد أثار فضول العصاة على نحو قوى عنيف ، وأن بوجاتشيف كان يستعد لاستقبالى فى وقار . **فلما دخلت ، عرفنى على الفور ، فتبدد ما قد اصطنعه من عبوس .** وقال : « أهذا انت ياصاحب النبالة؟ .. كيف حالك ، وما الذى أتى بك الى هنا ؟ »

— كنت ماضيا لبعض شؤونى ، فأوقفنى رجالك .

— وما هى هذه الشئون ؟

ولم أعرف بماذا أجيب .. وظن بوجاتشيف أننى أحرص على أن لا أبوح بشيء أمام رجاله ، فأمرهم بالخروج ، فأطاعوا ما عدا اثنين ظلا فى مكانهما لم يبرحاه . وقال بوجاتشيف : « تحدث أمامهما ، فاننى لا أخفى عنهما شيئا ! »

ألقيت على هذين الرجلين — اللذين يؤثرهما بوجاتشيف — نظرة شذراء . كان أحدهما عجوزا قميئا ، مقوس الظهر ، أبيض اللحية ، ليس فيه ما يلفت النظر غير شريط أزرق فوق معطف رمادى . الا اننى لن انسى رفيقه ما حييت : رجل فارع القامة ، ضخم ، عريض المنكبين ، يبدو فى الخامسة والاربعين من عمره ، ذو لحية حمراء كثة ، وأنف غير ذى منخرين ، وقد انتشرت فى جبينه وعلى خديه بقع حمراء — تضفي على وجهه العريض المجدر معني لا يوصف —

وقد ارتدى قميصا أحمر ، وجبة كرخيزية ، وسروالا قوقازيا . وعرفت - فيما بعد - ان الأول عريف فار يدعى « بيلوبوردوف » ، وأن الثاني - وهو يدعى « آفاناسي سوكولوف » ، ويلقب باسم « خلوبوشا » - مجرم عريق في الأجرام ، فر من مناجم سيبريا ثلاث مرات !.. ولقد أسلمتني رؤية هؤلاء الناس - الذين وقعت بينهم على غير ارادة مني - الى ذهول عميق ، رغم ما كنت أعانيه من قلق يخنق صدري . **وسرعان ماردني بوجاتشيف الى الواقع ، اذ خاطبني بقوله : « تكلم ! ما هو الأمر الذي أخرجك من اورنبورج ! »**

خطرت على بالي فكرة غريبة .. قلت - في نفسي - ان العناية الالهية اذ القتني مرة أخرى بين يدي بوجاتشيف كانت تتيح لي أن أنفذ الخطة التي عزمت على تنفيذها . فقررت أن أنتهز هذه الفرصة السانحة ، فاذا أنا أجيب على سؤاله - قبل أن يتسع وقتي للتفكير فيما أنا مقدم عليه - قائلا . « كنت ماضيا الى بيلوجورسكايا لنجدة يتيمة يسيئون معاملتها هنالك ! » . فقال الغاضب والشرر يتطاير من عينيه : « من ذا الذي يجرؤ من رجالي أن يسيء معاملة يتيمة ؟ .. **قل لي من هو هذا المجرم ، حتى أنزل فيه عقابي الشديد ، ولو كان في حكمة الملك سليمان الحكيم ! »**

- انه شفابرين .. لقد حجز في بيته تلك الفتاة التي رأيتها مريضة في منزل امرأة القس ، وهو يريد أن يكرهها على الزواج به !

قال بوجاتشيف بصوت مدو : « سيرى شفابرين مغبة فعلته .. سيرى كيف أعاقب الذين يركبون هواهم ، ويسيئون معاملة الشعب !.. لسوف يشنق » . فقال خلوبوشا بصوت متهدج : « اسمح لي أن أقول انك تعجلت

فى تعيين شفابرين آمرا للموقع ، وانك تتعجل الآن فى الحكم عليه بالشنق . لقد استثرت سخط القوزاقيين حين أقمت عليهم رئيسا من النبلاء ، فلا تستثر سخط النبلاء بقتل أحدهم لوشاية ترامت اليك ! » . فقال العجوز ذو الشريط الأزرق :

— ليس علينا أن نشفق عليهم ، ولا أن نعفو عنهم .. وليس اعدام شفابرين بالكارثة العظمى على كل حال . الا أن من المفيد أيضا أن نسائل حضرة الضابط — فى لطف ولباقة — عما أتى به الى هنا . فان كان لا يعترف بك ملكا ، فليس له أن يلتمس منك احقاق الحق . وان كان يعترف بك ملكا فماذا كان يعمل الى جانب اعدائك حتى الآن فى اورنبورج ؟.. هلا أمرت بأن نمضى به الى العنبر ندفئه قليلا ؟.. يخيل الى أن قادة اورنبورج هم الذين أرسلوه الى هنا !

كان منطق هذا المجرم العجوز مفحما . وسرت فى جسمى كله رعدة قوية ، وأنا افكر فى هؤلاء الناس الذين وقعت فى قبضتهم . ولاحظ بوجاتشيف اضطرابى فقال وهو يغمز بعينه : « يخيل الى أن المارشال على حق ، فما رأيك ؟ »

ردت الى هذه اللهجة الساخرة شجاعتى ، فأجبت فى هدوء بأننى فى قبضة يده ، وانه يستطيع أن يعاملنى المعاملة التى تحلو له . فأجاب بوجاتشيف يقول : « حسنا .. والآن قل لى : فى أية حال تعيش المدينة ؟ »

— لا يعوزها شىء بحمد الله .

— لا يعوزها شىء ؟.. ان الناس يموتون جوعا !

كان كلام الغاصب صحيحا ، الا أننى التزمت ما قطعت على نفسى من عهد ، فأخذت أؤكد له أن تلك اشاعة كاذبة ؛ وان اورنبورج فى بحبوحة من العيش . فقال العجوز — معترضا — يخاطب بوجاتشيف : « ها أنت ترى أنه يكذب

عليك وجها لوجه . لقد انعقد اجماع الفارين على أن المجاعة تهيمن على المدينة ، وأن الامراض متفشية فيها ، وان الناس يأكلون الجثث المتفسخة ، وأن الذين يجدون ما يأكلونه من هذه الجيف المتفسخة يعدون أنفسهم سعداء .. **الا أن سعادته يؤكد ان كل شيء على ما يرام . اذا أردت أن تعدم شفابرين ، فاعدم معه هذا الفتى على مشنقة واحدة ، فما يشمت أحد منهما فى الآخر ! »**

وكان أقوال هذا العجوز اللعين قد أثرت فى نفس بوجاتشيف . ولكن خلوبوشا انبرى يعارض زميله ، لحسن الحظ ، فقال : « اسمع يا ناومتش !.. انك لا تفكر الا فى الشنق والقتل . اهذه شجاعة ؟ أن المرء – حين ينظر اليك – ليستغرب ان تكون حيا الى الآن . انك من القبر قاب قوسين أو أدنى ، ثم لا يمنعك هذا من تقتيل الناس !.. أما يكفيك ما أهرقت حتى الآن من دماء ؟ » . فاعترض بيلوبورودوف يقول : « من سمعك تقول هذا الكلام ، حسبك قديسا هبط من السماء !.. من أين لك هذه الشفقة ؟ »

– لا شك أننى ارتكبت الخطايا كذلك (وهنا شد قبضة يده الناتئة عظامها ، وحسر كمه فكشف عن ذراعه ذات الشعر الكثيف) .. **ان هذه اليد قد أجرمت اذ سفكت دم كثير من المسيحيين ، الا أننى فتكت بأعداء لا بضيوف ..** فتكت بهم مقاتلا فى ساحات الوغى ، وفى الغابات المظلمة ، لا جالسا فى بيتى وراء المدفأة .. قتلتهم بفؤوس ودبابيس لا بوشايات حمقاء !

فأشاح العجوز وجهه ، ودمدم بضع كلمات مثل : « حشر أنفه » . وهنا صرخ خلوبوشا قائلا : « ماذا تجمجم أيها العجوز الهرم ؟.. سأريك كيف يكون حشر الأنف !.. انتظر قليلا ، فسيحين حينك ، وسيرسل اليك الله من يقطع

أوصالك !.. وبانتظار ذلك ، حذار أن انتف لحيتك ! »

هنا انبرى بوجاتشيف يقول فى وقار : « أيها القائدان ، كفاكما شجارا . لن تكون مصيبة كبرى أن تترنح كلاب أورنبورج كلها على مشنقة واحدة ، وانما المصيبة الكبرى أن تتشاجر كلابنا نحن ، وأن يمزق بعضها بعضا . هيا تصالحا »

وثم يقل خلوبوشا وبيلوبورودوف شيئا ، وألقى كل منهما على الآخر نظرة قاتمة . وأدركت أن على أن أغير مجرى الحديث ، فقد ينتهى بما لا ينفعنى . فالتفت نحو بوجاتشيف ، وقلت له بلهجة مرحة : « آه !.. نسيت أن أشكر لك هديتك : الحصان والمعطف . لولاك لما وصلت الى المدينة ، ولقضيت فى الطريق من شدة البرد » .

ونجحت خطتى ، وظهرت على بوجاتشيف أمائر المرح والفرح وقال وهو يغمز بعينه : « من زرع حصد .. ولكن قل لى الآن : ماذا يعنيك أن يسىء شفابرين معاملة هذه الفتاة ، أو أن لا يسىء معاملتها ؟.. أتكون عاشقا مولها يا عزيزى ؟ »

ـ هى خطيبتى !

قلت ذلك اذ لاحظت أن مزاج مضيفى قد تغير تغيرا مواتيا ، واذا لم أجد ما يدعو الى اخفاء الحقيقة عنه ، فهتف يقول : « خطيبتك ؟.. لماذا لم تقل لى هذا من قبل ؟.. اذن سنزوجك !.. سنحتفل بعرسك ! » . ثم اتجه الى بيلوبورودوف وقال : « اسمع يا فلد مارشال !.. أنا وصاحب النبالة رفيقان قديمان . سنتناول الآن طعام العشاء ، وغدا يخلق الله مالا تعلمون ! »

***

وددت لو أستطيع ان أرفض شرف هذه الدعوة ، الا أن مجرد التفكير فى ذلك كان خطرا ، واتت صبيتان من القوزاق

ـ هما ابنتا صاحب البيت ـ ففرشتا المائدة بغطاء أبيض ، وجاءتا بخبز وحساء وبعدد من زجاجات البيرة والفودكا .. كانت هذه هي المرة الثانية التي أؤاكل فيها بوجاتشيف ورفاقه الفظيعين . وامتدت هذه الوليمة ـ التي شاركت فيها على غير ارادة مني ـ الى ساعة متأخرة من الليل . وأخذت الخمر تفعل فعلها في الرؤوس ، فاذا بوجاتشيف يغفو في مكانه . ونهض رفاقه وأومأوا الى بضرورة اخلاء المكان ، فنهضت وسرت في اثرهم . وأصدر « خلوبوشا » أمره الى الخفير بأن يقودني الى دائرة البلدية ، حيث وجدت سافيليتش . وتركنا هنالك وحدنا ، بعد أن أحكم اقفال الباب علينا ، وكان « مرشدي » من شدة الدهشة لكل ما وقع لنا ، بحيث لم يطرح على اي سؤال ، واضطجع في الظلام ، وظل مدة طويلة من الوقت يتأوه ويطلق من صدره زفرات حرى . ثم نام واخذ يشخر ، بينما كنت غارقا في تأملاتي التي أرقتني الليل كله .

حتى اذا طلع الصباح ، جاء أحدهم يدعوني الى لقاء بوجاتشيف ، فمضيت اليه . ورأيت على الباب عربة شدت اليها ثلاثة أحصنة تترية . وكان الشعب محتشدا في الشارع ، ولقيت صاحبي في الدهليز مرتديا ثياب السفر : معطفا من فراء ، وقبعة كرخيزية . ورأيت رفاق البارحة يحفون به ، وقد اصطنعوا نوعا من الذل والخضوع لا يتفق مع كل ما شهدته بالأمس .. وحياني بوجاتشيف في مرح ، وأمرني بأن اصعد العربة ، ففعلت . ثم صعد هو اليها ، وصاح بالتتري ذي المنكبين العريضين الذي يسوق الخيل : « الى بيلوجورسكايا ! »

وخفق قلبي . وتحركت الخيل ، ودق الجرس ، وسارت العربة ، فسمعت صوتا أعرفه كل المعرفة ، ينادي : « قف !

قلف ! » .. ورأينا سافيليتش يعدو الى لقائنا ، فأوقف بوجاتشيف الخيل .

ـ اتتركنى وحدى ياعزيزى بترو اندريفتش ؟.. اتتركنى وحدى فى هذه السن بين هؤلاء المجـ .. ؟!

قال بوجاتشيف : « هذا أنت ايها البوم الهرم !.. على هذا النحو انما أرادت مشيئة الله أن نلتقى مرة أخرى ! .. هيا اصعد الى جانب السائق ! » . فصدع سافيليتش بالأمر ، وهو يقول : « ألف شكر يا سيدى ، ألف شكر يا مولانا ، يا أبانا الرحيم . أسأل الله أن يمد عمرك حتى تبلغ مائة عام ، جزاء لك على أنك واسيتنى وأشفقت على عجوز مثلى . سأدعو لك بالسلامة ما حييت ، ولن أجىء بعد الآن على ذكر المعطف المصنوع من فراء الأرنب ! »

* * *

كان يمكن ان يحنق ذكر هذا الفراء بوجاتشيف ، الا ان الغاصب لم يسمع هذا الكلام الحسن الحظ ، أو أنه احتقر هذه الاشارة التى جاءت فى غير محلها فلم يولها اهتماما . وأخذت الخيل تعدو . وكان الناس يتوقفون فى الشارع وينحنون فى تحية عميقة ، وبوجاتشيف يوزع التحيات ذات اليمين وذات الشمال . وماهى الا لحظة ، حتى خرجنا من البلدة سائرين فى طريق مستقيم .

سهل على القارىء أن يفهم ما كنت أعانيه فى تلك اللحظة من مشاعر . . بعد ساعات قليلة سألقى تلك التى كنت أعتقد أننى فقدتها الى الأبد .. وحاولت أن أتصور اللحظة التى سنلتقى فيها . وفكرت فى هذا الرجل الذى يقبض على ناصية مصيرى بيديه ، والذى أصبحت ـ بتعاون ظروف عجيبة ـ مشدودا اليه برابطة خفية . وتذكرت القسوة

المتهورة والغرائز الدموية ، التى تضطرم فى نفس هذا الذى تطوع لانقاذ حبيبتى ! .. كان بوجاتشيف يجهل أنها ابنة الضابط الرئيس ميرونوف . وفى وسع شفابرين - اذا هو أحرج - أن يكشف له عن هذه الحقيقة ، وفى وسع بوجاتشيف أن يطلع عليها بوسيلة أخرى .. فماذا يكون مصير ماريا ايفانوفنا فى الحال ؟ .. سرت فى جسمى كله قشعريرة قوية ، وانتصب شعر رأسى ..

***

وفجأة ، قطع بوجاتشيف تأملاتى ، بأن طرح على هذا السؤال : « فيم يفكر صاحب النبالة ؟ » . فأجبته قائلا : « فيم أفكر ؟ .. افكر فى أننى ضابط نبيل ، كنت بالأمس أحاربك ، فاذا أنا اليوم أسافر فى عربتك ، واذا سعادة حياتى كلها رهن مشيئتك ! » .. وعاد يسألنى : « أخائف أنت ؟ » . فأجبته بأننى ، وقد أطلق سبيلى فى المرة الأولى ، أصبحت أطمع .. لا فى عفوه فحسب ، بل فى معونته كذلك .

قال الغاصب : « شهد الله أنك على حق . لقد رأيت كيف كان رجالى يرمقونك بنظرات شذراء ، حتى ان العجوز زعم - فى هذا الصباح نفسه - أنك لست الا جاسوسا ، وأن الواجب يقضى أن ننكل بك وأن نأمر بشنقك . الا أننى رفضت أن أوافقه على ذلك . (هنا خفض صوته حتى لايسمعه سافيليتش والتترى) لأننى مازلت أذكر قدح الخمر الذى قدمته لى ، والفراء الذى أهديته الى . ومن هذا يتضح لك أننى لست شيطانا يمتص الدماء كما يتصور أصحابك ! »

تذكرت الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، ولكننى لم أر من الضرورى أن أناقشه فى رأيه ، فسكت ولم أجب بشىء . وبعد لحظات من الصمت سألنى بوجاتشيف : « ماذا يقولون

عنى فى اورنبورج ؟ »

ـ يقولون ان التغلب عليك ليس بالامر السهل . الحق انك فرضت نفسك !

فما ان قلت هذا الكلام ، حتى انبسطت أسارير بوجاتشيف وارتاح لما حقق طموحه من نصر . فقال جذلا . « نعم ياعزيزى.. أننى أجيد فن الحرب ! . .هل يعلمون فى أورنبورج شيئا عن النتيجة التى اسفرت عنها معركة (يوزبيفا) ؟ .. هل يعلمون أننى قتلت أربعين قائدا (جنرالا) ، واسرت اربع فرق ؟ .. ثم مارأيك أنت ؟ هل يمكن ان يقاس بى ملك بروسيا ؟ »

بدا لى تبجح هذا اللص مضحكا ، فسألته : « وأنت مارأيك ؟..هل تعتقد أنك تستطيع الانتصار على فردريك !»

ـ على فيدور فيدوروفتش ؟ ..ولم لا ؟ ..لقد انتصرت على قادتكم ، وقادتكم هؤلاء كانوا قد انتصروا عليه ! ..لقد كان الحظ حليفى فى جميع المعارك حتى الآن . ولكن مهلا ! سترى مايحدث حين أتجه الى موسكو !

ـ اذن فأنت تفكر فى الذهاب الى موسكو ؟

هنا سهم وجه بوجاتشيف لحظة ، ثم قال وقد خفض صوته : « الله أعلم ! .. ما كل مايتمنى المرء يدركه . ان حريتى محدودة ، فرجالى مسرفون فى الحذر.وهؤلاء أناس انذال . يجب ان أكون يقظا .. لسوف يفدون رؤوسهم بتسليم رأسى عند أول هزيمة ! » . فقلت : **« أليس من الأسلم اذن أن تتركهم طائعا قبل أن يخونوك ، وأن تمضى الى الامبراطورة تلتمس عفوها ؟ »**

فابتسم بوجاتشيف ابتسامة من أفاق من سكرته ، ثم قال : « لا . لقد فات أوان التوبة..لن يعفى عنى . سأمضى فى عملى كما بدأته . ومن يدرى ، فقد أفوز . ألم يستطع

جريشا أوتربيف أن يتسنم العرش بموسكو ؟ »

ـ ولكن ألا تدرى كيف كانت خاتمته ؟ .. لقد رموه من النافذة .. ذبحوه ، حرقوا جسمه ، شحنوا برماد جثته احد المدافع ، وأذروه فى مهب الريح !

قال بوجاتشيف فى نوع من الالهام الوحشى : « اسمع ! .. سأروى لك قصة سمعتها فى طفولتى من عجوز كلموكية : « قال النسر للغراب فى ذات يوم : « قل لى أيها الطائر العجوز ، كيف تعيش أنت ثلاثمائة عام ، ثم لا أبلغ أنا من العمر الا ثلاثة وثلاثين عاما على أكثر تقدير ؟ » .. فأجاب الغراب : « ذلك أنك ياعزيزى تشرب دما حيا ، بينما آكل أنا الجيف » . فقال النسر : « سأفعل مثلما تفعل » . ومضى الغراب والنسر معا ، فاذا هما يريان حصانا ميتا ، فهبطا اليه وانقضا عليه . أما الغراب فأخذ ينقر ويتلمظ . أما النسر فذاق الجيفة مرة أولى ، فمرة ثانية ، ثم حرك جناحيه ، وقال لرفيقه : **« لا ياعم ! .. لأن اشرب الدم ساخنا ولو مرة وحيدة أفضل من أن أطعم الجيف ثلاثمائة عام . والعفو على الله » !** .. كيف ترى هذه القصة الكلموكية ؟ »

قلت : « جميلة جدا .. ولكننى أرى أن من يعيش على السلب والقتل ، فهو يطعم جيفا » . فألقى على بوجاتشيف نظرة دهشة ، ولم يجب بشىء . ثم صمتنا ، وغرق كل منا فى تأملاته الخاصة .. وأخذ التترى يغنى أغنية حزينة . ثم غفا سافيليتش وهو يترنح فوق مقعده . وكانت العربة تنهب الطريق المفروشة بالثلج نهبا ..

وفجاة ، بصرت على ضفاف (اليائيق) الوعرة ، بقرية أطلت علينا ببرج كنيستها وسياج أسوارها . وما هو الا ربع ساعة ، حتى كنا فى (بيلوجورسكايا) ..

---

(١٢) يتيمة !

« مسكينة شجرة التفاح فى بيتنا ..
« مالها رأس ولا اغصان ؟
« مسكينة أميرتنا الغالية ..
« مالها أب ، ولا لها أم ..
« مالها أحد يزينها بالحلى ..
« مالها أحد يبارك زواجها » !

من أغانى الاعراس

• **وقفت** العربة أمام منزل الآمر . وكان الشعب يتبعنا راكضا ، اذ عرف مركبة بوجاتشيف من رنين أجراسها . ولقينا « شفابرين » على عتبة الباب . كان يرتدى لباسا قوزاقيا ، وكان قد أرخى لحيته . وهب هذا الخائن الى مساعدة بوجاتشيف على النزول من العربة ، وراح يتزلف اليه بأجبن العبارات ، مظهرا ولاءه معبرا عن فرحه . واضطرب حين رآنى ، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه ، فمد الى يده وهو يقول : « اصبحت اذن من جماعتنا ! .. حقا لقد آن الأوان » . فأدرت ظهرى له ، ولم أقل شيئا .

وانقبض صدرى حين رأيتنى فى هذه الغرفة التى أعرفها حق المعرفة .. كانت شهادة المرحوم آمر الموقع لاتزال معلقة على الحائط ، تذكر على حزن وحسرة بالعهد الذى انقضى . وجلس بوجاتشيف على الديوان — الذى كان ايفان كوزمتش يغفو فوقه ، تهدهده ثرثرات زوجه — فقدم له شفابرين قدحا من الفودكا بنفسه ، فابتلعه بوجاتشيف دفعة واحدة ، **وقال وهو يشير الى باصبعه : « قدم قدحا لصاحب النبالة ! »**

فتقدم منى شفابرين بطبقه ، الا أننى أشحت بوجهى مرة

أخرى ، فبدا عليه الاضطراب . لقد ادرك ولاشك ــ بما يملك من نفاذ البصيرة ــ ان بوجاتشيف غير راض عنه ، فظهر عليه الوجل ، ورماني بنظرات تفيض شكا وارتيابا . وسأله بوجاتشيف عن حالة الموقع ، وعما يشاع عن تقدم العدو ، الى آخر ما هنالك ، ثم باغته على حين غرة بهذا السؤال :

« قل لى يا عزيزى ، من هى تلك الفتاة التى تسجنها فى بيتك ؟ .. أحب ان أراها ! »

فامتقع وجه شفابرين حتى أصبح كوجوه الموتى اصفرارا ، ثم قال بصوت مرتجف : « ليست سجينة يا سيدى ، وانما هى مريضة .. راقدة فى غرفتها » . فأجاب الغاصب وهو ينهض عن الديوان : « امض بى اليها ! » .. واذا أصدر الزعيم أمرا ، فلا مجال ثمة للمناقشة .. كان لابد لشفابرين من أن ينفذ الأمر ، فصعد به نحو غرفة ماريا ايفانوفنا ، وتبعتهما. فاذا شفابرين يتوقف على السلم قائلا : **« مولاى ! .. لك أن تطلب الى كل ما تشاء ، ولكن لاتسمح لغريب أن يدخل الى مخدع زوجتى ! »**

فما سمعت هذا الكلام حتى ارتجفت من أخمض قدمى الى قمة رأسى ، فصحت بشفابرين ، وأنا مستعد لأن أمزقه اربا : « اذن تزوجت ؟ ! » . فقاطعنى بوجاتشيف بقوله : « على مهلك .. هذا من شأنى ! .. وأنت ياشفابرين ، ليس لك أن تتعلل ولا أن تتبرم .. سواء أكانت الفتاة امرأتك أم لم تكن ، فلى أن أحضر اليها من أشاء من الناس . اتبعنى ياصاحب النبالة ! »

وتوقف شفابرين مرة أخرى أمام الغرفة ليقول بصوت متهدج : « مولاى ، انها مصابة بحمى شديدة ، وهى تهذى بلا انقطاع منذ ثلاثة أيام » .. فصاح به : « افتح هذا الباب ! »

أخذ شفابرين يبحث فى جيوبه مدة طويلة ، ثم أعلن أنه نسى المفتاح . فما كان من بوجاتشيف الا أن ركل الباب بقدمه ، فاذا بالقفل ينكسر ، واذا بالباب يفتح ، فدخلنا الغرفة . وكدت أقع مغشيا على .. رأيت ماريا ايفانوفنا — وقد اشتد نحولها وشحب وجهها وتشعث شعرها — جالسة على الأرض ، فى ثوب بسيط ممزق مما ترتديه الفلاحات ، وأمامها جرة ماء مغطاة بقطعة من الخبز . **فلما رأتنى أدخل ، انتفضت ، وانطلقت من صدرها صيحة .** ولا تسلنى عما فعلته عندئذ ، فاننى لا أتذكر من ذلك شيئا الآن .

ألقى بوجاتشيف على شفابرين نظرة ساخرة ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة مرة : « انه لمستشفى ممتاز ، مستشفاك هذا ! » .. ثم اقترب من ماريا ايفانوفنا وخاطبها بقوله : « قولى لى أيتها الحمامة ، لماذا يعاقبك زوجك ؟ .. ما مأخذه عليك ؟ »

— **زوجى ؟ .. ليس هو بزوجى ، ولن اكون زوجته فى حياتى !** .. لقد آثرت أن أموت على أن أتزوجه ، وسأموت أن لم يخلصنى أحد منه !

فألقى بوجاتشيف على شفابرين نظرة حانقة وقال : «ها ! لقد جرؤت اذن على خداعى ؟ .. هل تدرى أيها النذل ماتستحقه من عقاب ؟ » . فما كان من شفابرين الا أن جثا على ركبتيه . فرأيت الاشمئزاز يتغلب فى نفسى على جميع عواطف الكره والغضب . وأخذت أنظر فى احتقار الى هذا السيد النبيل يتهالك على قدمى قوزاقى هارب من السجن !

***

وهدأ روع بوجاتشيف فقال : « سأعفو عنك فى هذه المرة ، ولكنى سأذكرك بهذه الخطيئة عند أول خطيئة أخرى

ترتكبها ! » . ثم التفت الى ماريا ايفانوفنا ، فقال لها فى كثير من اللطف : « أخرجى من هنا أيتها الجميلة ، فأنى أرد اليك حريتك .. أنا القيصر ! »

فالقت عليه ماريا ايفانوفنا نظرة سريعة ، وأدركت انها أمام قاتل أبويها ، فغطت وجهها وسقطت مفشيا عليها . فهرعت اليها أريد أن اسعفها ، الا ان « بالاشا » اقتحمت الغرفة - فى هذه اللحظة - واخذت تسعف سيدتها . فترك بوجاتشيف الغرفة ، ونزلنا جميعا الى البهو .. وقال لى :

- ها قد انقذنا حبيبتك الجميلة يا صاحب النبالة ، فما رأيك فى ان نستدعى القس ، وأن نجبره على مباركة زواجك بقريبة زوجته ؟ .. سأكون انا أبا العريس ، ويكون شفابرين شاهد الزواج . سنحتفل بالعرس : « نأكل ونشرب ثم الباب عليكما نغلق » !

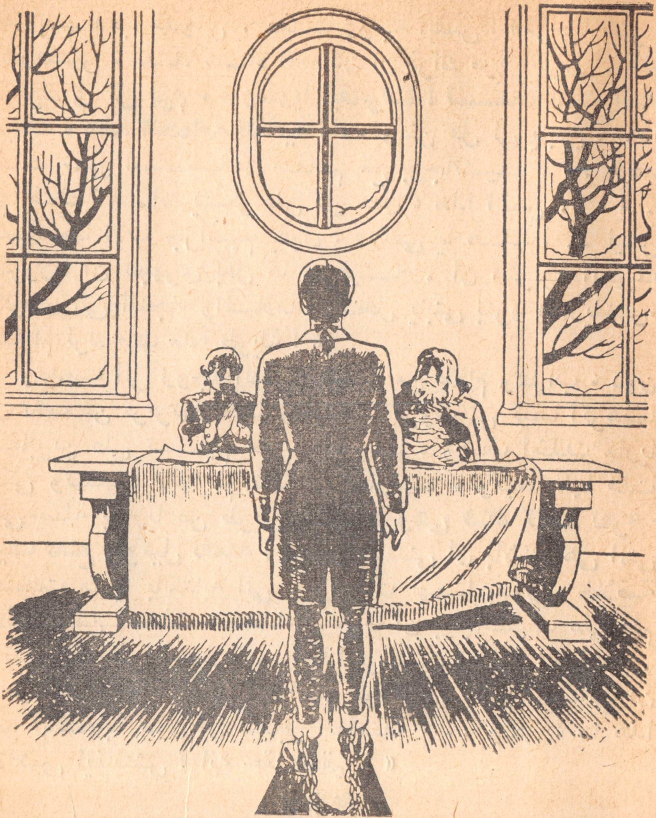
هنا وقع ما توقعته . فان شفابرين قد فقد صوابه حين سمع اقتراح بوجاتشيف . فقال فى غضب شديد : « لقد اخطأت يامولاى اذ كذبت عليك ، الا ان جرينيف يكذب عليك ايضا .. ليست هذه الفتاة قريبة زوجة القس . انها ابنة ايفان ميرونوف ، الذى أعدم حين الاستيلاء على هذا الحصن ! »

فرشقنى بوجاتشيف بنظرات ملتهبة ، وسألنى مرتبكا : «ماهذا ؟» . فأجبت رابط الجاش : «لقد صدق شفابرين» . فقال بوجاتشيف وقد تجهمت أسارير وجهه : « لم تنبئنى بهذا من قبل ! »

- أكان فى وسعى أن أعلن أمام رجالك ، ان ابنة ميرونوف على قيد الحياة ! .. لو قد قلت ذلك لمزقوها اربا ، ولما أمكن انقاذها !

فقال بوجاتشيف ضاحكا : « هذا لعمرى صحيح ..

ما كان لهؤلاء السكيرين أن يدعوا الفتاة وشانها . ولقد أحسنت زوجة القس صنعا حين أخفت عنهم هذه الحقيقة !» .
وانتهزت فرصة مرحة هذا ، فتابعت كلامي أقول : «اسمع ! .. لا أعرف كيف ادعوك ، ولا أحب ان أعرف كيف ادعوك ، ولكن يشهد الله أنني مستعد لأن ادفع حياتي ثمنا لما قدمت لي من صنيع . على أنني أرجوك أن لا تكلفني شططا فتطلب الى أمرا لا يتفق مع شرفي ووجداني المسيحي . أتم ما بدأته ، ودعني أمضي بهذه اليتيمة الى حيث يشاء لنا الله أن نمضي . ولك علينا عهد الله — أينما كنت ومهما يقع لك من أحداث — أن ندعو لك الله في كل يوم ، نسأله المغفرة عن خطاياك ! »
وبدا على اللص أن روحه العاتية قد تأثرت بهذا الكلام ، فقال : « لك ما تشاء ! .. أنا ان عاقبت كان عقابي صارما ، وان عفوت كان عفوي كاملا ، تلك عادتي .. خذ حبيبتك الجميلة ، وامض بها الى حيث تشاء ، واني لأسأل الله أن يباركك كما وأن يحميكما من كل سوء ! »
ثم التفت الى شفابرين ، فأمره بأن يعطيني « رخصة مرور » في جميع المراكز والحصون التابعة لسلطته .. وكان شفابرين كالمصعوق من هول ما يرى . ثم مضى الغاصب يفتش الحصن مصطحبا شفابرين ، وبقيت أنا في البيت متعللا بأنني أريد ان أعد للسفر عدته ..
وهرولت الى الطابق الأعلى ، فوجدت الباب مغلقا ، فقرعته ، فأجابت بالاشا : « من الطارق ؟ » . واذ ذكرت اسمي ، سمعت صوت ماشا الساحر يجيب : «انتظر يا بترو اندريفتش ، فانني أرتدي ثيابي .. اذهب الى آكولينا بامفيلوفنا ، وسألحق بك على الفور ! » . فصدعت بالأمر ، ومضيت الى منزل القس .
وهرع الأب جراسيم وزوجته الى لقائي ، وكان سافيلتش



فقال وهو يصعر وجهه : ((أنت ياصاحبى شاطر، ولكننا رأينا كثيرا من الشاطرين أمثالك !)) ..

(ص ١٦٤)

قد أبلغهما نبأ قدومى . فقالت زوجة القس : «مرحبا ببترو أندريفتش ، لقد شاء الله اذن أن نراك مرة أخرى . كنا نذكرك فى كل يوم .. وماريا ايفانوفنا ! لشدما تألمت أثناء غيابك ، هذه الحمامة الغالية ! .. ولكن قل لى يابنى ، ماذا عملت حتى استطعت أن تتفاهم مع بوجاتشيف ؟ .. كيف لم يقتلك ؟ .. انه يشكر على كل حال ، هذا اللص .. ! » . فقاطعها الأب جراسيم يقول : « كفى يا هذه ! .. ليس ضروريا أن تجهرى بكل ما تعرفينه . ان الثرثرة الطويلة لاتؤدى الى النجاة والسلامة . . أدخل يابنى بترو اندريفتش ، اننا لم نرك منذ مدة طويلة ! »

وقدمت الى زوجة القس ماتيسر من طعام وشراب ، دون أن تكف عن ثرثرتها لحظة واحدة . فروت لى كيف أكرههما شفابرين على تسليم ماريا ايفانوفنا ، وكيف أخذت ماريا تبكى وتنتحب لأنها لم تشأ أن تفارقهما ، وكيف أنها ظلت على صلة بماريا عن طريق بالاشا (وهى فتاة كانت تعرف كيف تقنع الوكيل نفسه !) . وأفهمتنى أن بالاشا هى التى نصحت ماريا بالكتابة الى . ورويت لهما بدورى خلاصة مالقيت من أحداث ، فما ان عرفا أن بوجاتشيف على علم بأكذوبتهماحتى اضطربا ، وأخذا يرسمان اشارة الصليب .

وقالت زوجة القس : « اللهم عونك .. اللهم أسألك أن تمر السحابة دون أن تنفجر العاصفة ! .. ولكن ، ما هذا الالكسى ايفانتش ؟ انه حقا لحقير ! »

***

فى هذه اللحظة فتح الباب ، وظهرت ماريا ايفانوفنا باسمة . لقد تركت ماكانت ترتديه من ثياب الفلاحات ، وعادت فى ثياب كالتى كانت ترتديها سابقا .. وهى ثياب

بسيطة ، على ذوق . فتناولت يدها ، وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة .. صمتنا كلانا وقد طفح قلبانا سعادة . **وأدرك القس وزوجه انهما زائدان ، فتركانا وحيدين .. فنسينا كل شيء ، وظللنا نتحدث دون أن نستطيع التوقف** . قصت على ماريا ايفانوفنا كل ما وقع لها ، منذ الاستيلاء على الحصن . فوصفت لى الحالة الفظيعة التى كانت فيها ، وما عانته من متاعب سببها لها هذا الحقير الكريه شفابرين ، وذكرنا الأيام الخوالى ، فأخذنا نبكى معا .. وطفقت أخيرا أشرح لها ماعزمت عليه من أمر : أفهمتها أن من المستحيل أن تبقى فى حصن يخضع لسلطان بوجاتشيف ويأمره شفابرين ، وأن من المستحيل — كذلك — أن أمضى بها الى (أورنبورج) التى كانت تعانى ماتعانى من هذا الحصار الطويل ، ولم يبق لها من أهل فى هذا العالم . **فاقترحت عليها أن نمضى الى منزل أهلى فى الريف** . فترددت فى أول الامر ، لخوفها من أن لايشعر أبى نحوها بشيء من المحبة أو العطف ، الا أننى هدأت روعها وطمأنتها .. كنت أعلم أن أبى سيعتقد أن مما يشرفه ان يؤوى فى بيته ابنة محارب قديم ، قضى نحبه فى سبيل الوطن .. وقلت لها أخيرا : « **عزيزتى ماريا ايفانوفنا . انى أعدك زوجتى منذ الآن** .. ان ظروفا عجيبة جمعت بين قلبينا الى الأبد ، ولن يقوى شيء فى هذا العالم على التفريق بيننا بعد الآن ! »

فأصغت الى كلامى فى بساطة ، دون أن تظهر شيئا من تواضع كاذب أو تعلل معقد .. كانت تشعر أن مصيرها مرتبط بمصيرى ، ولكنها كررت ماسبق أن قالته ، وهو أنها لن تصبح زوجتى قبل أن يوافق ابواى على هذا الزواج .

لم اعارضها فى ذلك ، وتعانقنا فى حرارة وصدق واخلاص .
وعلى هذا النحو تم بيننا الاتفاق على كل شيء .

وبعد ساعة ، جاءنى أحد الوكلاء برخصة المرور ، مذيلة بتوقيع مجعلك ، هو توقيع بوجاتشيف ، ودعانى الى المثول بين يدى الغاصب . فلما مضيت الى بوجاتشيف ، وجدته يتهيأ للعودة . ولا أستطيع أن أشرح شرحا دقيقا ماشعرت به وأنا أفارق هذا الرجل الفظيع ، الذى كان وحشا ضاريا مع جميع الناس .. الاى ! **علام الكذب ؟ ..**
الحق أننى شعرت نحوه فى تلك اللحظة بحب قوى ! ..
وكنت أتمنى - من أعماق قلبى - أن أحمله على ترك عصابة اللصوص التى يرأسها ، وأن أنقذ حياته قبل أن يسبق السيف العزل . الا أن شفابرين والجمهور كانوا يحيطون بنا ، فلم أستطع أن أفصح عن كل ما يختلج فى قلبى .

وافترقنا على أحسن مايكون صديقان . ولمح بوجاتشيف «آكولينا بامفيلوفنا» بين الجموع المحتشدة ، فلوح لها بيده مهددا على سبيل الدعابة ، وغمز بعينه غمزة ذات دلالة . ثم صعدالى المركبة ، وامر الحوذى أن يعود به الى (بردسك) . وحين سارت الخيل ، أطل من العربة مرة أخرى وصاح بى قائلا : «وداعا ياصاحب النبالة !.. قد نلتقى فى المستقبل» .
ولقد التقينا فعلا ، ولكن يالها من ظروف تلك التى التقينا فيها ! .. وغاب بوجاتشيف عن انظارنا ، فظللت مدة طويلة أتأمل السهل اللاحب ، الذى كانت مركبته تجتازه سريعة رشيقة . وتفرق الحشد ، وغاب شفابرين .. وعدت الى منزل القس .. كان كل شيء قد أعد للسفر . وكنت لا أحب أن أتأخر أكثر مما تأخرت ، فوضعنا أشياءنا جميعها فى العربة

القديمة ، التى كان يملكها الآمر . وسرعان ما كدن الحوذى المركبة . ومضت ماريا ايفانوفنا تزور قبر أبويهـا ، اللذين دفنا وراء الكنيسة . واردت أن أصحبها ، ولكنها رجتنى أن أدعها تمضى الى القبر وحيدة .

وعادت بعد بضعة لحظات وهى تذرف الدموع . ثم جاءت العربة ، وخرج الأب جراسيم وزوجته الى الباب يشيعاننا . واستوينا فى المركبة نحن الثلاثة : أنا ، وماريا ايفانوفنا ، وسافيليتش ، الذى جلس الى جانب الحوذى . وقالت زوجة القس الطيبة : « وداعا يا ماريا ايفانوفنا ، ياحمامتى العزيزة ! .. وداعا يابترو اندريفتش ، ياذا القلب النبيل ! .. ارجو لكما رحلة موفقة وحياة سعيدة » .

وسارت بنا المركبة . ولمحت شفابرين ينظر الينا من خلال نافذة بيت الآمر .. كانت ملامحه تعبر عن حنق قاتم . ولم أشأ أن أظهر انتصارى على عدو ذل ، فأدرت وجهى ، واجتزنا الأبواب تاركين هذا الحصن الى الأبد .

(١٣) الاعتقال

- لا تلمني يا سيدى ، فواجبي يقضي بان أرسلك فورا الى السجن .
- لك ما تشاء . انني مستعد ، ولكن أملى كبير فى أن تتفضل فتصغى الى حججى .

« كينيا جنين »

• **هكذا** وجدتنى مع الفتاة الرائعة ، التى كان مصيرها يقلقنى أشد القلق ، فى صباح اليوم نفسه . كنت لا أكاد أصدق أن هذه السعادة — التى تغمرنى — واقع لا حلم . كان يتراءى لى أن كل ماوقع ليس الا حلما ، لا غد له . وكانت ماريا ايفانوفنا تتأمل الطريق ساهمة سادرة ، كأنها لم تثب الى نفسها بعد . كنا صامتين ، اذ كان قلبانا أملأ من أن نستطيع الحديث . وانقضت ساعتان دون أن نشعر بانقضائهما ، فاذا نحن ندخل الى حصن مجاور خاضع كذلك لسلطان بوجاتشيف ، فهبوا هنالك الى ابدال خيل العربة بسرعة ، وأظهر القوزاقى الألحى — الذى كان بوجاتشيف قد عينه آمرا لهذا الحصن — كثيرا من الحفاوة بنا ، فأدركت أنهم يعدوننى أثير بوجاتشيف ومن المقربين اليه ، وذلك بفضل ثرثرات الحوذى الذى كان يقود مركبتنا .

وتابعنا سيرنا .. وأخذ الظلام يهبط . وأخذنا نقترب من مدينة صغيرة زعم الآمر الألحى أن فيها قطعة كبيرة من الجنود تتأهب للالتحاق بجيش بوجاتشيف . فلما وصلنا الى هذه المدينة الصغيرة ، استوقفنا عدد من الخفراء . وسألوا من نحن ، فأجاب الحوذى : « صديق صاحب الجلالة ، مع السيدة زوجته » . **فاذا بجماعة من الفرسان تحيط بنا فجأة ، وتأخذ تكيل لنا ألوانا من الشتائم .**

وصاح بى رقيب المساكن : « انزل ياصديق الشيطان !

.. انزل الى حمام ساخن ، أنت والسيدة زوجتك ! » .. فنزلت من المركبة ، وأمرت أن يمضوا بى الى آمر الموقع . فلما رأى الجنود أننى ضابط ، كفوا عن شتائمهم .

وتقدمنى رقيب المساكن يقودنى الى مقر المقدم ، فاقترب منى سافيليتش يدمدم بقوله : « شىء عظيم ! .. صديق صاحب الجلالة ! .. هربنا من الدب ، فوقعنا فى الجب . رباه ! ترى ما النهاية التى سنؤول اليها ؟ » . وتبعتنا المركبة .

وماهى الاخمس دقائق ، حتى وصلنا الى منزل تخرج منه أنوار ساطعة . فتركنى الرقيب فى حراسة رجاله ، ودخل يؤذن بنا . ثم مالبث أن عاد يعلمنى **أن صاحب النبالة الرفيعة لا يتسع وقته للقائى الآن ، وأنه أمر بوضعى فى السجن وبادخال السيدة اليه** . فصرخت فى غضب شديد : « نعم ؟.. أهو مجنون ؟ » . فأجاب : « لا أدرى يا صاحب النبالة ، الا أن صاحب النبالة الرفيعة أمر بأن نضع نبالتكم فى السجن ، وأن ندخل اليه السيدة زوجة نبالتكم ، يا صاحب النبالة ! »

فاندفعت نحو الباب . ولم يدر فى خلد الجنود أن يستوقفونى . ودخلت قدما الى غرفة رأيت فيها ستة من الضباط يقامرون . كان المقدم هو الذى يوزع الورق . وما كان أشد دهشتى ــ حين نظرت اليه من كثب ــ فعرفت فيه **ايفان ايفانوفيتش زورين ، الذى علمنى لعب « البليارد » ، وغلبنى فى فندق (سمبرسك) !**

فهتفت أقول : « أهذا ممكن ؟.. ايفان ايفانوفيتش !.. أهذا أنت ؟ »

ــ ها ، بترو اندريفتش !.. أية ريح ساقتك الينا ؟.. من أين أنت آت ؟ أهلا وسهلا !.. تعال شاركنا اللعب !

– شكرا !.. افضل أن تأمر لى بمنزل أبيت فيه .

– مالك وللمنزل !.. ستبيت عندى !

– لا أستطيع .. لست وحدى !

– تعال أنت ورفيقك .

– لست فى صحبة رفيق . انها .. سيدة .

– سيدة ؟ أين عثرت عليها يا عزيزى ؟

قال زورين ذلك ، ثم أرسل صفرة مضحكة ، قهقه لها الجميع ، فاضطربت أشد الاضطراب . وتابع زورين كلامه يقول : « حسنا ، سنهيىء لك منزلا تبيت فيه . ولكن هذه خسارة !.. كان يمكن أن نسهر الليلة معا ، كما كنا نفعل فى السابق » . ثم التفت الى الجندى يقول : « ماذا تنتظر ؟.. لماذا لم تدخل صديقة بوجاتشيف ؟.. هل مانعت فى الدخول ؟.. قل لها انه لا خوف عليها ، فاننى انسان نبيل ، لا أكره أحدا على مالا يحب .. ليس لها أن تتدلل ! »

فتدخلت أقول : « ما هذا الكلام ؟.. ليست هذه السيدة صديقة بوجاتشيف ، وانما هى ابنة الضابط الرئيس ميرونوف ، حررتها من الأسر ، وأنا ذاهب بها الآن الى أرضنا، لأتركها فى كنف أهلى ! »

– ما هذا الكلام ؟.. اذن فالشخص الذى أبلغونى نبأ اعتقاله – منذ قليل – هو أنت ؟.. ما معنى هذا كله ؟ اننى لا أفهم ..

– سأروى لك كل شىء فيما بعد ، وانما أرجوك الآن أن تطمئن هذه الفتاة المسكينة التى روعها فرسانك .

فنهض زورين من مكانه على الفور ، وخرج بنفسه الى

الشارع ، يعتذر لماريا ايفانوفنا عما وقع من التباس لا ارادة له فيه . وأمر عريف المساكن بأن يعد لسكناها أجمل بيت في المدينة . أما أنا ، فمكثت عنده .

***

وبعد أن تناولنا طعام العشاء بقينا وحدنا ، فقصصت له ما وقع لى ، فكان يصغى الى حديثى فى انتباه شديد ، حتى اذا فرغت من الكلام هز رأسه وقال : « هذا كله معقول ياعزيزى ، الا أن ثمة شيئا لاأفهمه : ماحاجتك الى الزواج ؟ اننى انسان شريف ، اننى ضابط ، وليس بى من حاجة الى خداعك . صدقنى اذا قلت لك ان الزواج سخف كبير !.. ليس من شأنك أن تتورط بامرأة ، وأن تعنى بأطفال صغار !.. دعك من هذا، واسمع ما أقوله لك : **تخلص من ابنة الضابط الرئيس ! ..** لقد طهرت طريق (سمبرسك) فأصبح خاليا من اى خطر . **ارسل الفتاة فى الغداة وحيدة الى أبويك ، وامكث أنت هنا فى فرقتى.** دعك من العودة الى اورنبورج ، والا فقد تقع مرة أخرى فى قبضة العصاة ، فما تستطيع التخلص منهم بمثل تلك السهولة .. ثم ينقضى جنون الغرام ويمسى كل شىء على ما يرام ! »

ورغم أننى لم أوافق « زورين » كل الموافقة، فقد شعرت ان الواجب يقتضى وجودى فى جيوش الامبراطورة ، فقررت ان أعمل بنصيحته : **أرسل ماريا ايفانوفنا الى أهلى وأبقى فى فرقة زورين .**

وجاء سافيليتش يخلع ملابسى ، فذكرت له أن عليه أن يتهيأ للسفر غدا مع ماريا ايفانوفنا ، فأخذ ــ فى أول الامر ــ

يمانع ، قائلا : « ما هذا الكلام ياسيدى ؟ كيف تريد منى أن أتركك !.. ومن ذا الذى يعنى بك اذا أنا تركتك ؟ وما عسى أن يقول أبواك ، اذا أنا تركتك ؟ »

ولما كنت أعرف عناد صاحبى ، فقد قررت أن آخذه بالرفق واللين ،وأن أصارحه بكل شىء . فقلت : « أرجوك ياصديقى العزيز ارخيب سافيليتش !.. لا ترفض لى هذا الطلب . احسن الى بتحقيق هذا الطلب . لست فى حاجة الى من يخدمنى ، ولسوف يقلقنى جدا أن تسافر ماريا ايفانوفنا وحدها . وان أنت خدمت ماريا فانما تخدمنى أنا ، لاننى عازم عزما أكيدا على الزواج بها متى سمحت الظروف بذلك ! » .. وهنا ضم سافيليتش يديه ـ احداهما الى الاخرى ـ وظهرت فى وجهه علائم دهشة يعجز الكلام عن وصفها وأخذ يقول : « **تتزوج بها ؟ الولد يريد أن يتزوج !.. وما عسى أن يقول أبواك فى هذا الأمر ؟ وما عسى أن يكون رأى أمك ؟ »**

ـ لعلهما يوافقان حين يعرفان ماريا ايفانوفنا .. ثم اننى اعتمد عليك . ان ابوى يثقان بك ، ولا شك أنك ستشجعهما على هذه الموافقة ، أليس كذلك يا سافيليتش ؟

فأجاب : « عزيزى بترو اندريفتش .. صحيح أنك أصغر سنا من أن تتزوج ، **ولكن ماريا ايفانوفنا آنسة ممتازة ، ومن الخطأ أن تفوت هذه الفرصة !** نعم ، نعم .. سأصحبها .. سأصحب هذا الملك الهابط من السماء ، وسأقول لأبويك ـ فى اخلاص الخادم الامين ـ ان خطيبة كهذه يجب ان لاتطالب بمهر ! »

فشكرت لسافيليتش شهامته ، ورقدت فى غرفة زورين .. وكنت في حالة من الانفعال والحماسة ، فأخذت اثرثر ،

وظهر على زورين - فى أول الامر - أنه مستعد للحديث ، ولكن سرعان ما قل كلامه وتشوش شيئا بعد شىء . حتى اذا طرحت عليه سؤالا أخيرا ، كان جوابه أن أخذ يشخر ، وأخذ أنفه يصفر . فانقطعت عن الكلام ثم مالبثت أن اقتديت بـه .

وفى الصباح من الغداة ، ذهبت الى ماشا أطلعها على ما عزمت عليه من أمر ، فما لبثت أن حبذته ، لأنها رأت فيه عين الحكمة والصواب . وكان على فرقة زورين أن تترك المدينة فى ذلك اليوم نفسه ، فالوقت ضيق يجب أن لا يضيع منه شىء . فما لبثت أن ودعت ماريا ايفانوفنا ، وأنا أعهد بها الى سافيليتش واحمله رسالة الى أبوى . وأخذت ماريا تبكى ، وقالت فى لطف « فى رعاية الله يابترو اندريفتش . لا يعلم الا الله هل نلتقى مرة أخرى أو لا نلتقى ، **ولكننى لن أنساك ما حييت .. ستبقى وحدك فى قلبى الى أن الفظ آخر أنفاسى ! »**

ولم أستطع أن أجيبها بشىء ، لأننى لم أشأ أن أظهر للناس العاطفة التى تعتلج فى قلبى. حتى اذا سافرت ماريا ايفانوفنا ، عدت الى بيت زورين حزينا صامتا . وأراد أن يواسينى ، وأحببت أنا أن اسرى عن نفسى ، وأن ابدد كآبتى ، فقضينا سحابة النهار فى صخب وعربدة . حتى اذا أقبل المساء ، تركنا المدينة لنمضى الى العمل .

***

كان ذلك فى اواخر شهر شباط (فبراير) . وكان فصل الشتاء - الذى يعرقل الاعمال الحربية - مشرفا على نهايته ، وقادتنا يتهيأون للشروع فى عمل مشترك حاسم . وكان

بوجاتشيف لا يزال يحاصر (اورنبورج) فاستطاعت قطعاتنا ان تتلاقى متأهبة لتطويق عرين اللصوص ، وأخذت القرى المتمردة تستسلم لدى رؤية جيوشنا ، وراحت عصابات العصاة تتبعثر فى كل مكان كلما اقتربنا منها ، وبات كل شىء يبشر بنهاية سريعة موفقة .

وما لبث الجنرال الامير جالتسين أن أحرز فى (تاتيشيفا) انتصارا حاسما على بوجاتشيف ، فشتت شمل عصاباته ، وحرر اورنبورج ، ولاح ان الفتنة قد شارفت على الانتهاء . وأرسل زورين يلاحق فلول الباشكير العصاة ، الذين كانوا يهربون قبل أن نصل اليهم . ثم أدركنا الربيع فى قرية تترية .. وكانت الانهار قد بدأت تفيض ، فانقطعت الطرق ، واضطررنا الى التوقف عن العمل . وكنا نسرى عن أنفسنا بالتفكير فى خاتمة هذه الحرب المملة ، التى أشهرناها على لصوص وعلى همج .. الا أن بوجاتشيف كان لا يزال طليقا . ثم لم يلبث أن ظهر فى مناجم سيبيريا ، وأخذ يجمع عصابات جديدة ويستأنف جرائمه . وذاعت انباء انتصاراته مرة أخرى . وسرعان ما طرق أسماعنا نبأ استيلائه على (قازان) واتجاهه نحو موسكو .. فأقلق ذلك قادة الجيش أيما قلق بعد أن هدهدهم هذا الحلم العذب ، وهو القضاء على اللص الحقير .

وصدر الأمر الى زورين باجتياز نهر الفولجا ، والاتجاه بسرعة نحو (سمبرسك) ، حيث أحرزت الفتنة انتصارات سريعة . فلما تصورت اننى سأتمكن من المرور بارضنا ، فأعانق أبوى ، وأرى ماريا ايفانوفنا ، بلغت من شدة الفرح اننى أخذت أقفز كطفل ، وأقبل زورين ، واردد بلا انقطاع :

« الى سمبرسك ، الى سمبرسك ! » . فكان زورين يزفر ثم يقول وهو يهز كتفيه : « لا ، لا .. ان نهايتك لسيئة ان أنت تزوجت .. سيكون فى ذلك ضياعك ! »

***

واقتربنا من ضفاف الفولجا ، واحتلت الفرقة قرية (س ..) ، وقضت فيها ليلتها . وكان علينا أن نجتاز النهر بكرة فى الغداة . فقال لى عمدة القرية ان جميع القرى الواقعة على الضفة الاخرى قد التحقت بالثورة ، وأن عصابات بوجاتشيف تطوف المنطقة كلها . فأقلقنى هذا النبأ كثيرا ، وشعرت باضطراب كبير ، **ولم أجد الى الراحة سبيلا .. كانت أرض أبى واقعة على بعد ثلاثين فرسخا وراء الضفة الثانية** . وسألت : هل من وسيلة الى ايجاد قارب اجتاز به النهر .. ولكن جميع الفلاحين كانوا يمارسون الصيد ، فقيل لى : « حذار !.. انه لمن الخطر أن تسافر وحدك . انتظر حتى الصباح ، فسنجتاز النهر أول من يجتازه ، فنمضى الى زيارة أهلك يصحبنا خمسون فارسا ، تفاديا لكل خطر ! »

وأصررت على رأيى ، فأعد القارب ، واستويت فيه مع اثنين من المجدفين . وانفصلنا عن الشاطىء ، وأخذت المجاديف تضرب الماء . كانت السماء صافية ، والقمر ساطعا ، والجو ناعما ، و (الفولجا) يجرى فى عظمة وجلال ، والقارب ينزلق على صفحة المياه المظلمة فى ترنح يسير .. وانقضى على ذلك نصف ساعة . كنت قد تركت العنان لخيالى يعبث ما شاء له العبث ، فرحت أفكر فى هدوء الطبيعة ، وأحوال السياسة ، والحب ، الخ .. حتى وصلنا الى منتصف النهر ،

وفجأة تبادل الرجلان بضع كلمات بصوت منخفض ، فثبت الى نفسى ، وسألتهما : ((ماذا تقولان ؟)) . فأجابا وهما ينظران الى جهة من النهر : « لا ندرى ما هذا ! الله يعلم ما هو !.. »

فنظرت ، فاذا أنا أبصر فى ضوء القمر الشاحب شيئا يتحرك على صفحة الماء ، فى اتجاه مجرى النهر . كان هذا الشىء المجهول يقترب منا ، فأمرت الرجلين أن يقفا منتظرين .. وجاءت سحابة فغطت القمر ، وأصبح الشبح المتحرك مظلما . وزاد اقترابه منا ، الا أننى لم أستطع تمييزه بعد . فقال الرجلان : « ولكن ما عسى أن يكون هذا ؟.. انه ليس شراعا ولا صاريا » . وانقشعت السحابة فجأة عن وجه القمر ، فاذا نحن نرى منظرا رهيبا .. انها مشنقة نصبت فوق رمث (١) يأتى نحونا . وعلى المشنقة ثلاثة مشنوقين .. وسيطر على نوع من الفضول المرضى ، وأردت أن أرى وجوه هذه الضحايا ، فأمرت الرجلين ان يحاذيا الرمث ، فأنشبا فيه .. واصطدم قاربى بالمشنقة العائمة ، فقفزت الى الرمث ، فاذا أنا أمام ثلاث جثث تعيسة رهيبة . وكان القمر يلقى على وجوهها المشوهة نورا واضحا . أما الاول فكان شوفاشيا (٢) عجوزا ، وأما الثانى فكان فلاحا روسيا قويا بدينا ، بدا فى العشرين من عمره ، وأما الثالث فقد شدهت حين نظرت اليه ، ولم أستطع الا أن أرثى لحاله .. كان « فانكا » .. فانكا المسكين ، الذى دفعته حماقته الى

---

(١) الرمث خشب يضم بعضه الى بعض ويركب فى الماء .

(٢) الشوفاش قوم من أصل فنلندى يقيمون فى وادى الفولجا (اقليم سمبرسك ، وفازان .. الخ .)

الالتحاق بالثائرين . ورأيت لوحة سوداء فوق رؤوسهم ، وكتبت عليها بأحرف بيض هذه العبارة : « لصوص وعصاة » .. وكان الرجلان ينتظراني وهما يمسكان الرمث بالكلابة . فعدت الى القارب ، وتابع الرمث سيره الجنائزي . وظللنا مدة طويلة نميز المشنقة في الظلام ، ثم غابت عن أعيننا . ووصل قاربنا الى ناحية عالية وعرة من الضفة الثانية .

***

نقدت الرجلين أجرا كبيرا . وقادني أحدهما الى عمدة القرية ، الذي كان يقيم في مكان قريب من النهر . فلما علم العمدة انني أطلب خيلا ، نظر الى في أول الأمر نظرة متكبرة ، الا أن دليلي همس في اذنه ببضع كلمات ، فاذا خشونته تنقلب حالا الى حفاوة بالغة . وما هي الا لحظات حتى كانت العربة معدة ، فصعدت اليها وأمرت الحوذي بالمضي الى قريتي .. وسارت العربة بسرعة ، مارة بقرى نائمة . وكنت لا أخشى الا شيئا واحدا ، هو ان أوقف في الطريق . **ولكن ، لئن كان مارأيته في الفولجا دليلا على وجود ثائرين ، فانه كان ــ كذلك ــ دليلا على قوة السلطات** . وكنت ــ على كل حال ــ أحمل رخصة السفر التي بذيلها توقيع بوجاتشيف . وأحمل كذلك أمر السير الذي يمهره توقيع العقيد زورين . الا انني لم ألق أحدا .

ولما طلعت تباشير الصباح ، رأيت نهرا ، ورأيت الحقل الذي تقوم وراءه قريتنا . وراح الحوذي يضرب الخيل بالسوط . وماهي الا ربع ساعة حتى كنت في قرية (س ..) . ولكن القصر الذي يقيم فيه سيد القرية ، كان يقع في آخرها .

واخذت الخيل تعدو بسرعة كبيرة . وفجأة ، أخذ الحوذى يستوقفها ـ بشد اللجم شدا قويا ـ فى وسط الشارع . فسألته فى لهفة : « ماذا هنالك ؟ » . فأجاب وهو لايوقف الخيل الجامحة الا فى كثيرمن العناء : «أن الطريق مسدودة» .

نظرت ، فاذا أنا أرى حاجزا رفع فى منتصف الطريق ، وقام الى جانبه حارس مسلح بدبوس . واقترب الفلاح ، فرفع قبعته ، وطلب الى ابراز جواز السفر . **فسألته قائلا : « ماهذا الحاجز ؟ .. ومن ذا تراقب ؟ »** . **فأجاب وهو يحك ظهره : « لقد التحقنا بالثورة ياعزيزى »** . فسألته وقد انقبض صدرى : « وأين سادتكم ؟ »

ـ سادتنا فى عنبر القمح .

ـ فى عنبر القمح ؟

ـ نعم ياعزيزى ! ..ولقد قيدهم المسجل بالحديد ، وهو يزمع أن يذهب بهم الى القيصر !

ـ رباه ! افتح هذا الحاجز أيها الأبله ، هيا افتح ! ..ماذا تنتظر ؟

وتردد الحارس ، فقفزت من العربة ، وضربته على اذنه ،وأزحت الحاجز بنفسى ، وهو يتطلع الى بنظرة مرتبكة بلهاء . ثم صعدت العربة ، وأمرت الحوذى بأن يمضى بى الى سيد المنزل .. كان عنبر القمح يقوم فى وسط العرصة . ورأيت أثنين من « الموجيك » يحرسان مدخل البيت ، وقد تسلح كل منهما بدبوس . وقفت العربة أمام الباب ، فقفزت منها الى الأرض ، واتجهت اليهما رأسا . فقلت آمرا : « افتحا الباب ! »

***

ربما كان منظرى رهيبا مخيفا . والمهم ـ على كل حال ـ أنهما فرا مسرعين ، ورمى كل منهما دبوسه على الأرض. وحاولت أن أحطم القفل ، وأن أقتحم الباب ، الا أن الباب كان مقيدا بالسلاسل ، لا سبيل الى قهره.. وفى هذه اللحظة، خرج من جناح الخدم شاب من الموجيك ، وسألنى بلهجة صلفة : «كيف جرؤت على فعل مافعلت ؟» . فصرخت أقول: «اين المسجل اندروشكا ؟ .. ائتنى به !»

ـ انه أنا . واسمى آندريه آفاناسيفتش ، لا اندروشكا .. ماذا تريد ؟

قال ذلك فى زهو وكبرياء ، وقد وضع يديه على خصره . ولكننى بدلا من أن أجيب على سؤاله ، أمسكت به من ياقته، وجررته حتى وصلت الى باب العنبر ، فأمرته بأن يفتحه . وأراد أن يحتج ، وأن يعيط ، ولكننى سرعان مالطمته بضع لطمات هدأت روعه . فأخرج من جيبه مفتاحا ، وفتح العنبر. وهرعت الى الداخل . وهناك ، **فى ركن مظلم لايدخل اليه النور الا من ثقب صغير فى السقف ، رأيت أبوى .. كانت أيديهما مقيدة ، وكانت أرجلهما مقيدة ..** ارتميت عليهما دون أن اقول كلمة واحدة . وأخذا يتفرسان فى دهشين .. ان هذه السنين الثلاث ـ التى قضيتها فى الخدمة العسكرية ـ قد بدلت ملامحى ، حتى أنهما لم يعرفانى . وفجأة ، سمعت صوتا ساحرا اعرفه يقول : « أهذا أنت يابترو اندريفتش ؟ »

فالتفت ، فرأيت ماريا ايفانوفنا فى ركن آخر ، مقيدة كذلك .. وصعقت ! .. وأخذ أبى ينظر الى صامتا ، وهو

لايصدق عينيه . كان الفرح يضيء وجهه . ثم قال وهو يشدنى الى صدره : « لقد عدت يابنى ؟ .. الحمدلله ، الحمدلله !» ..وأطلقت أمى صرخة من صدرها ، ثم اجهشت فى بكاء غزير . وقالت : « بنى ، حبيبى ! ..لقد شاء الله أن يأتى بك الى هنا ، ولكن كيف حالك ؟ »

وسارعت فحللت وثاقهم بسيفى . لأخرجهم من هذا المكان . الا اننى حين اقتربت من الباب ، وجدته مغلقا من جديد . فصحت حانقا أنادى أندروشكا : « أندروشكا .. افتح الباب ! » . فأجاب من الخارج : « لا ، لا .. ماعليك الا أن تبقى هنا . سنعلمك كيف تخرج على القانون وتهين موظفى القيصر ! »

وأخذت أفحص العنبر ، لعلى أجد وسيلة تتيح لنا الهرب . فقال أبى : «هذا عبث ! ..لست من المالكين الذين يدخلون الى عنابرهم. ثم يخرجون منها بممر خفى ! » .

لقد سرت أمى فى أول الأمر لرؤيتى ، ثم ما لبثت أن انحدرت الى غم شديد ، اذ رأتنى ألقى نفس المصير الذى يهدد الأسرة كلها . أما أنا ، فقد شعرت بالهدوء والطمأنينة منذ وجدتنى الى جانب أبوى والى جانب ماريا ايفانوفنا . وكنت ما أزال أملك سيفى وأملك مسدسين ، وهذا مايتيح لى أن احارب اذا اقتضى الأمر . وكان على زورين أن يصل فى المساء ، ولا بد أن يحررنا متى وصل . فأنبأت أهلى بذلك ، واستطعت أن أهدىء من روع أمى ومن روع ماريا ايفانوفنا ، فغرهما فرح رؤيتى مرة أخرى .

***

وقضينا ساعات طويلة فى مداعبات وأحاديث لاتنقطع .

قال أبى : «هيه ، يابترو .. لقد فعلت الأفاعيل ، وما أشد ما ضقت عليك ، ولكنا لانريد أن نتحدث الآن فى امور الماضى .. أرجو أن تكون قد شفيت الآن من حماقاتك . اننى أعلم أنك قد قمت بواجبك العسكرى على النحو الذى يليق بضابط شجاع ، فشكرا لك .. ان هذا لمما يعزى رجلا عجوزا مثلى . واذا تمت نجاتنا على يدك ، كان سرورى بها مضاعفا ! » .. فقبلت يد أبى وأنا أبكى . وألقيت نظرة عجلى على ماريا ايفانوفنا ، فكانت من شدة الفرح لحضورى ، بحيث كانت تبدو هادئة كل الهدوء ، سعيدة كل السعادة .

وفى نحو الظهيرة ، سمعنا صراخا وضجة غير مألوفة . فسأل أبى : «ماهذا ؟ .. أيكون صاحبك العقيد قد وصل ؟» .. فقلت : «**هذا غير ممكن .. انه لايستطيع الوصول قبل المساء** » .

زادت الضجة ، ودق ناقوس الخطر ، وسمعنا وقع حوافر الخيل تجرى فى باحة المنزل عدوا . وفى هذه اللحظة ، رأينا رأس سافيليتش الأشيب يطل من ثقب فى جدار العنبر ، وسمعته يقول فى توجع : « آندريه بتروفتش ، وبنى بترو اندريفتش ، وماريا ايفانوفنا ! .. لقد وصل اللصوص الى القرية ! .. **وهل تعرف يابترو اندريفتش من على رأسهم ؟ .. انه شفابرين ، اليكسى ايفانتش ، قاتله الله ! »**

حين سمعت ماريا ايفانوفنا هذا الاسم الكريه ، ضمت يديها احداهما الى الاخرى ، وتسمرت فى مكانها وقد لاح فى وجهها يأس رهيب . فقلت : « اسمع ياسافيليتش ! .. ارسل أحدا ــ على حصان ــ الى ضفة النهر ، يستقبل فرقة الفرسان ، وينبىء العقيد بما نحن فيه من خطر » .

– من عساى أرسل ياسيدى ؟ .. ان الأولاد جميعا قد التحقوا بالثورة ، والخيول صودرت كلها . آه ، ياالهى ! .. ها قد وصلوا الى الباحة .. انهم يقتربون من العنبر !

***

وفى هذه اللحظة ، سمعنا أصواتا وراء البـاب ، فأشرت الى أمى والى ماريا ايفانوفنا أن يعتصما فى ركن من الأركان ، ثم استندت الى الحائط بقرب الباب ، وسـللت سيفى . وأخذ أبى المسـدسين فسلحهما ، واصطف الى جانبى .. ورفع القفل ، وفتح الباب ، وظهر رأس المسجل فى المدخل ، فما لبثت ان هويت عليه بضربة من سيفى فخر على الأرض وسد بسقوطه مدخل العنبر . وفى هذه اللحظة ، أطلق أبى نار مسدسه فى الباب ، فاذا الحشد – الذى كان يحاصرنا – ينسـحب الى الوراء . فجـررت الجريح الى الداخل ، وأغلقت الباب .. كان الجمع يعج بأناس مسلحين ، عرفت بينهم شفابرين . فقلت لأمى وماريا : « لاتخافا شيئا ! .. الأمل كبـير » . ثم التفت الى أبى قائـلا : « وأنت ياأبت ، لاتطلق نار مسدسك . لنوفر مابقى لنا من ذخيرة ! »

وكانت أمى تصلى وتبتهل الى الله صامتة ، وقد وقفت ماريا ايفانوفنا الى جانبها تنتظر قرار القدر فى هدوءملائكى . وكانت تدوى فى الخارج أصوات التهديد والسباب والشتم . ظللت فى مكانى مستعدا لأن أمزق اربا أول جسور يمكن أن يظهر على الباب . وفجأة ، سـكت المجرمون . وسـمعت صوت شـفابرين ينادينى باسمى . فقلت : « انا هنا ! .. ماذا تريد منى ؟ »

ـ سلم نفسك ياجرينيف ان المقاومة عبث لاطائل تحته . جنب أبويك العجوزين شر الموت ! .. لن ينقذك العناد ، فسوف أنتصر عليك !

ـ ماعليك اذن الا أن تحاول أيها الخائن .

ـ كلا ، لن أعرض نفسى لشىء فى غير فائدة ، ولن أعرض حياة رجالى للخطر . يكفينى أن آمر باشعال النار فى العنبر ، وسنرى ـ عندئذ ـ ما أنت صانع ، يا ((دون كيشوت)) بيلوجورسكايا !.. سأمضى الآن أتناول طعام الغداء ، وما عليك بانتظار ذلك الا أن تفكر فى الأمر على مهلك . الى اللقاء ! .. وأنت يا ماريا ايفانوفنا ، لن أعتذر لك ، فلعلك لن تملى القعود فى الظلام ، الى جانب فارسك المغوار !

وابتعد شفابرين بعد أن أمر بحراسة العنبر . ولم نقل شيئا .. كان كل منا غارقا فى أفكاره ، دون أن يجرؤ على الافضاء بها للآخرين . كنت أفكر فيما يستطيع انسان كشفابرين أن يفعله اذا ثار ثائره !.. وانى لأعترف بأن القلق الذى ساورنى على أبوى ، كان ضئيلا اذا قيس بالقلق الذى أحدثه فى نفسى مصير ماريا ايفانوفنا .. كنت أعلم أن الفلاحين والخدم يحبون أمى الى درجة العبادة ، وأن أبى يتمتع ـ كذلك ـ بمحبة الناس برغم قسوته ، لأنه كان عادلا ، وكان يعرف حاجات رعاياه الحقيقية . ولم تكن ثورتهم اذن بالخطيرة ، وانما هى زلة لا تعبر عن استياء ذى بال . فالامل ـ من هذه الناحية ـ لم يزل زوالا تاما . ولكن .. ولكن ما عسى أن يكون مصير ماريا ايفانوفنا بين يدى رجل فاجر لاضمير له ؟ .. لم أكن أجرؤ على التوقف عند هذه الفكرة

الفظيعة ، وكنت أتهيأ (اللهم عفوك ومغفرتك !) لأن أقتلها قبل أن أراها واقعة فى قبضة عدوها !

***

انقضى على ذلك ما يقرب من ساعة .. كانت أصوات غناء السكارى تصل الى مسامعنا من القرية . وكان حراسنا يتمزقون حسدا ، فينتقمون لأنفسهم منا بأن يكيلوا لنا السباب ، ويهددونا بالتعذيب والقتل . وأخيرا اضطربت عرصة المنزل مرة أخرى اضطرابا كبيرا ، وسمعنا صوت شفابرين يقول : « هية ! هل فكرتم ؟ .. هل عزمتم على الاستسلام طائعين ؟ »

لم يجبه أحد ، فانتظر مدة من الوقت ، ثم أمر باحضار القش . وما هى الا لحظات ، حتى رأينا النار تشتعل فى سجننا المظلم . وأخذ الدخان يتسرب من تحت الباب . عندئذ اقتربت ماريا ايفانوفنا منى وتناولت يدى فى رقة ولطف وقالت :

— اسمع يابترو اندريفتش ! .. لاتهلك أبويك ، ولا تهلك نفسك بسببى . دعنى أخرج ، فان شفابرين يصغى الى كلامى !

فصرخت فى غضب شديد : « مستحيل . . أتدرين ما الذى ينتظرك ؟ » . فأجابت فى هدوء : « لن أعيش بعد أن يثلم شرفى ، ولكن .. ربما استطعت أن أنقذ الشخص النبيل الذى حررنى ، والأسرة الكريمة التى أحسنت وفادة يتيمة بائسة .. وداعا يا آندريه بتروفتش ، وداعا يا أفدوتيا

فاسيليفنا !.. جزاكما الله خيرا عما اسلفتما من احسان الى .. باركانى وانعما على بالرضى !.. وداعا انت يا بترو اندريفتش .. تأكد اننى .. اننى .. »

هنا انفجرت فى نحيب قوى ، وهى تخفى وجهها بيديها .. كنت كمن طار صوابه . وانفجرت أمى فى بكاء غزير . فقال أبى : «كفى حماقة ياماريا ايفانوفنا ، من ذا الذى يدعك تذهبين وحدك الى هؤلاء اللصوص ؟ .. ابقى هنا وكفى ثرثرة . اذا كان لابد من الموت ، فلنمت معا !.. اسمعوا ماذا يقولون أيضا فى الخارج ؟ »

وسمعنا شفابرين يصيح : « الا تستسلمون ؟.. الا ترون أنه لن تمضى خمس دقائق حتى تقلى جسومكم قليا ؟ » . فأجابه أبى بصوت قوى حازم : « لن نستسلم أيها الحقير ! » .. وكان وجهه المغضن يشرق بقوة هائلة وعزيمة جبارة .. وكانت عيناه تقدحان شررا تحت حاجبيه الكثيفين . والتفت نحوى وقال : « آن الأوان ! »

ثم فتح الباب ، فاندفعت النيران الى الداخل ، وارتفعت ألسنة اللهب حتى بلغت جسور السقف المسدودة شقوقها بأغصان يابسة . وأطلق أبى نار مسدسه ، ثم جاوز العتبة المشتعلة بخطوة ، وهو يصيح بنا قائلا : « اتبعونى ! » . فأمسكت بيدى أمى وماريا ، وخرجت بهما بسرعة الى الهواء الطلق . فرأيت شفابرين مجندلا امام العتبة ، قد صرعته يد أبى الضعيفة . وقد ذعر جمهور اللصوص من خروجنا المفاجىء هذا فتفرقوا .. الا أنهم سرعان ما استردوا رباطة جأشهم ، واخذوا يطوقوننا . واستطعت أن أضرب عددا من

الضربات القوية . الا أن آجرة - رمتها يد حاذقة - قد أصابتني فى صدرى ، فسقطت مغشيا على . واحاط بى اللصوص ، فجردوني من سلاحى . فلما أفقت من اغمائى ، رأيت شفابرين راقدا على العشب داميا ، وقد أجلست أمام أسرتنا ، يسندنى بعضهم من الابطين . واحتشد حولنا جمهور من الفلاحين والقوزاق والباشكير .

***

كان شفابرين شديد الشحوب ، وقد وضع يده على جرحه . وكانت قسمات وجهه تعبر عن الألم والغضب .. رفع رأسه فى بطء ، ونظر الى وجها لوجه ، ثم قال بصوت مضطرب لايفهم : **«أشنقوه .. أشنقوهم جميعا .. ماعداها !»**

فأحاط بنا الجمهور على الفور ، وجرونا نحو الباب الكبير . ولكنهم سرعان ما تركونا على حين فجأة ، فان زورين قد ظهر عند المدخل ، تتبعه كوكبة كبيرة من الفرسان ، قد أشهرت سيوفها . وأخذ العصاة يتبعثرون فى جميع الجهات ، وأخذ الفرسان يطاردونهم فيطعنون من يطعنون ، ويأسرون من يأسرون . ونزل زورين عن حصانه ، فحيا ابوى ، ثم شد على يدى بقوة . وقال : « لقد وصلت فى اللحظة المناسبة .. هذه اذن خطبتك ! » . فتضرج وجه ماريا ايفانوفنا ، بحمرة شديدة بلغت الأذنين . واقترب أبى من زورين ، وشكره بصوت هادىء على انفعال . وعانقته أمى وهى تناديه بقولها : « يا ملاكنا المنقذ ! »

سأل وهو يتفرس فى وجه الجريح : «من هذا ؟» . فأجاب

ابى فى شىء من الزهو : « انه رئيس العصابة .. لقد أعان الله يدى الضعيفة على معاقبة هذا المسىء ، فثأرت بذلك لدم ابنى ! » . وقلت لزورين : « انه شفابرين ! »

ـ شفابرين ؟.. انه ليسرنى أن أراه . خذوه أيها الفرسان وقولوا للطبيب أن يعنى به عنايته ببؤبؤ عينه !.. يجب حتما أن يستطيع شفابرين المثول أمام لجنة (قازان) السرية . انه أحد المجرمين الرئيسيين ، ويمكن أن يكون لشهادته شأن كبير .

فتح شفابرين عينيه المتوجعتين . وكانت قسمات وجهه لاتعبر عن شىء غير الالم الجسمى ، فأضجعه الفرسان على معطفه ، ومضوا به .

***

ودخلنا غرف المنزل ، فكنت أشعر بتأثر شديد ، وانا انظر حولى وأتذكر أيام طفولتى .. لم يتبدل فى البيت شىء ، بل كان كل شىء فى مكانه المعهود . ذلك أن شفابرين لم يسمح ينهب المنزل ، فقد احتفظ فى أعماق نذالته باشمئزاز غريزى من كل عمل من هذا النوع .. وظهر الخدم فى الدهليز .. انهم لم يشاركوا فى العصيان أية مشاركة ، وقد فرحوا فرحا صادقا لاستردادنا حريتنا . وكان سافيليتش يتهلل طربا .

يجب أن أذكر انه أثناء الجفول الذى سببه هجوم العصاة ، **هرع سافيليتش الى الاسطبل الذى كان فيه حصان شفابرين ، فاسرجه وأخرجه دون أن ينتبه اليه أحد ،** وانتهز فرصة الجلبة ـ التى قامت فى باحة المنزل ـ فمضى

مسرعا الى ضفة النهر ، فوجد هناك فرقة زورين تستريح الى جانب الماء .. وأنبأ زورين بالخطر الذى نحن فيه ، فأصدر زورين امره بأن تسرج الخيل ، وأن يتجه الفرسان نحو قريتنا فى أعظم سرعة ممكنة ، وقد وصلوا - بحمدالله - قبل أن يفوت الأوان .

وأصر زورين على أن يظل رأس المسجل معروضا عند مدخل الحانة بضع ساعات .

وعاد الفرسان من مطاردتهم وقد أسروا عددا من اللصوص ، فأودعوهم ذلك العنبر عينه ، الذى صمدنا فيه للحصار التاريخى .. ثم افترقنا ليذهب كل منا الى غرفته .. لقد كان أبواى العجوزان فى حاجة الى الراحة . وارتميت انا على سريرى ، وسرعان ما غططت فى نوم عميق ، لأننى لم يغمض لى جفن طوال الليلة البارحة . ومضى زورين يصدر أوامره .

وفى المساء تحلقنا فى البهو حول « السماور » ، نتحدث فرحين عن الخطر الذى نجونا منه .. وسكبت لنا ماريا ايفانوفنا أقداح الشاى . وجلست الى جانبها لا أهتم بشيء سواها . وبدا على أبوى أنهما ينظران بعين الرضى الى علاقة الحب التى بيننا. مازالت ذكرى هذه السهرة منقوشة فى نفسى الى اليوم .. لقدكنت سعيدا .. كنت فى ذروة السعادة . ما أندر مثل هذه اللحظات العذبة فى حياتنا الشقية !

***

وفى الصباح من الغداة ، جاء بعضهم ينبىء أبى ان الفلاحين قد وفدوا الى الباحة يعلنون التوبة ويطلبون

العفو . فخرج أبى اليهم . فلما أبصروه جثوا على الأرض . وقال أبى يخاطبهم : « ما الذى حملكم على العصيان أيها الحمقى ؟ » . فأجابوا جميعا بصوت واحد : « عفوك يا صاحب النبالة ! »

— كلام جميل ! .. « عفوك ياصاحب النبالة » ! .. ترتكبون الحماقات ، ثم تجيئون تطلبون العفو ؟ ! .. على كل حال ، من اعترف بذنبه فقد كفر عنه بعض التكفير .. لقد عفوت عنكم ،لأن الله من على بعودة ابنى بترو اندريفتش .

— لقد أخطأنا ، لقد أخطأنا !

— الجو صاح جميل ، وهذا أوان حصاد العشب ، فماذا عملتم خلال هذه الأيام الثلاثة أيها الأغبياء ؟.. ياستاروست، ارسلهم جميعا الى المراعى ، وحاول أيها الحيوان الأشقر أن لايأتى عيد القديس يوحنا الا وقد تكدس العلف وثائم . هيا امضوا فى سبيلكم !

فانحنى الفلاحون يحيون ، ثم مضوا الى عملهم كأن شيئا لم يحدث .

لم يكن جرح شفابرين خطيرا . وقد ارسل مخفورا الى (قازان) . وكنت أطل من نافذة غرفتى حين رفعوه الى العربة التى ستقله الى قازان ، فالتقت نظراتنا . **فخفض هو رأسه ، وغادرت أنا النافذة بسرعة ، خشية ان اظهر بمظهر المنتصر على عدوى فى حال بؤسه وذله .**

وكان على زورين أن يتابع مهمته ، فقررت أن أصحبه ، برغم رغبتى الشديدة فى قضاء بضعة أيام أخرى فى أحضان أسرتى . وقبل الرحيل بيوم ، ذهبت الى أبوى ، فانحنيت

حتى لامست الأرض ، على عادة أهل ذلك الزمان ، **وطلبت اليهما الموافقة على زواجى بماريا ايفانوفنا** . فأنهضنى أبواى العجوزان وأعلنا عن موافقتهما وهما يذرفان الدموع من شدة الفرح ، فمضيت أجيئهما بماريا ايفانوفنا شاحبة مرتجفة ، فباركا زواجنا . . ولن أستطيع أن أصف ماشعرت به فى تلك اللحظة . من مر بمثل هذا الموقف ، يستطيع أن يفهمنى دون أن ألح فى الوصف . أما من لم يمر بمثل هذا الموقف ، فلا يسعنى الا أن أرثى لحاله ، والا أن انصحه – قبل أن يفوت الأوان – بأن يعشق ويطلب الى أبويه مباركة زواجه .

وفى الغداة ، كانت فرقتنا على أهبة السير . فاستأذن زورين أسرتى بالرحيل . وكنا جميعاعلى يقين من ان الأعمال الحربية ستنتهى فى القريب ؛ وكنت آمل أن أستطيع الزواج فى غضون شهر ، **وقد عانقتنى ماريا ايفانوفنا على مرأى من الجميع وهى تودعنى** . وصعدت العربة يتبعنى سافيليتش . وسار الركب ، وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أحول نظرى عن منزلنا ، الذى أتركه للمرة الثانية . . كان شعور بنذير الشؤم يجتاح نفسى ، حتى لكأن صوتا مجهولا كان يهتف بى أن محنى لم تنته بعد . . كأن قلبى يوجس خيفة من ملمات جديدة .

***

لن أصف هذه الحملة ، ولا نهاية حرب بوجاتشيف . وحسبى أن أذكر اننا مررنا بقرى نهبها رجال الغاصب نهبا فظيعا . ولم يكن لنا مناص من استلاب هؤلاء السكان

البؤســاء ما قد تركه لهم اللصوص .. كانوا لايعرفون من يطيعون ومن يعصون . لم يبق من سلطات في أي مكان .. كان أصحاب الأملاك مختبئين فى الغابات ، وكانت عصابات اللصوص تجوب البلاد ترتكب الجرائم ، وكان رؤساء القطعات الخاصة ، المكلفة بمطاردة بوجاتشيف ــ الذى أخذ ينهزم متجها نحو استراخان ــ يعملون وفقا لما يمليه عليهم هواهم ، فيعاقبون المذنب والبرىء على حد سواء . ورأينا منطقة بكاملها قد شب فيها الحريق ، وأصبح أهلها فى حالة فظيعة من التشرد والجوع . ألا وقانا الله شهود ثورة شعبية روسية ، ثورة مجنونة لاترحم ! .. ان اولئك الذين يفكرون فى تهيئة ثورات فى بلادنا ، اما انهم شبان لايتبصرون بعواقب الأمور ، واما انهم أناس لايعرفون طبيعة شعبهم ، واما انهم رجال قساة القلوب لايقيمون وزنا لحياتهم ولا لحياة غيرهم من الناس .

لقد فر بوجاتشيف يطارده ايفان ايفانوفتش مكلسون . ثم ما لبثنا ان بلغتنا أنباء هزيمته الحاسمة . وقد تلقى زورين ــ أخيرا ــ نبأ أسر هذا المحتال ، وتلقى فى الوقت نفسه امرا بوقف تقدمه . لقد انتهت الحرب ، وأصبح فى وسعى أن أعود الى أهلى .. واشتعل قلبى حماسة ، حين تصورت أننى استطيع أن أعانق أبوى بعد قليل ، وأن أرى ماريا ايفانوفنا التى لم يبلغنى عنها أى نبأ .. كنت أقفز كالطفل الصغير من شدة الفرح ، وكان زورين يضحك ، ويهز كتفيه قائلا : « لا ، لا ، العاقبة وخيمة . . انك بالزواج تضيع نفسك فى غير طائل ! »

على ان شعورا غريبا كان يعكر على فرحى . كنت على

الرغم منى افكر فى ذلك اللص .. فى الدماء البريئة التى سفكها ، وفى العذاب الذى ينتظره . وكان ذلك يقلقنى .. كنت أخاطبه فى سرى آسفا : « آه منك ياامليان .. لماذا لم تصبك طعنة من رمح ، لماذا لم تصبك رصاصة من مسدس ؟ .. ليت شيئا من هذا قد وقع لك ، اذن لمت ميتة حسنة ! »

ماذا تريدون ؟ .. كنت لا استطيع أن أفكر فيه ، دون أن أتذكر أنه عفا عنى فى أحرج لحظة من لحظات حياتى ، وأنه أنقذ خطيبتى من براثن شفابرين اللئيم الكريه .

وأذن لى زورين بالرحيل .. وكنت أتهيأ للسفر بعد بضعة أيام ، لألقى أهلى وأرى ماريا ايفانوفنا ، لولا أن صاعقة لم تكن فى الحسبان وقعت على راسى . ففى اليوم المعين للرحيل ، فى اللحظة التى كنت أهم فيها أن آخذ سمتى الى قريتنا ، دخل على زورين ، وقد أمسك بيده ورقة ، **وظهرت على وجهه علائم غم عميق .. شعرت بقلبى ينقبض فجأة .. شعرت بخوف لا أعلم أنا نفسى سببا له .** وصرف زورين خادمى ، وقال انه يريد ان يكلمنى فى أمر من الامور . فسألته قلقا : « ماذا هنالك ؟ »

فقال وهو يمد الى الورقة : « شىء مزعج .. انظر ماذا تلقيت منذ هنيهة ! » . فتصفحت الورقة ، فاذا هى أمر سرى موجه الى جميع رؤساء القطعات الخاصة ، **بأن يقبضوا على حيث يجدوننى ، وأن يسوقونى – على الفور – مخفورا الى « لجنة التحقيق » بقازان** ، وهى اللجنة المكلفة بالتحقيق فى قضية بوجاتشيف .. وكادت الورقة تسقط من يدى . وقال زورين :

- يؤسفني انني مضطر الى تنفيذ الامر !.. لعل السلطات قد ترامت اليها أنباء أسفارك الودية مع بوجاتشيف . أرجو أن لا يجر هذا ذيولا سيئة ، وأن تستطيع تبرير عملك أمام اللجنة . لا تفقد شجاعتك ، وسافر من فورك !

كنت مرتاح الضمير ، لا أخشى ان اداں بشيء ، وانما كان يزعجني أن لحظة اللقاء الجميل قد تتأخر بضعة أشهر . وأعدت العربة ، وأبدى زورين كثيرا من المودة والصداقة ، وتمنى لى حظا سعيدا . وصعدت العربة ، فجلس عن يميني جندى ، وعن شمالى جندى آخر ، وقد شهر كل منهما سيفه . وسارت بنا العربة فى الطريق الكبير .

(١٤) .. واخيرا ، انتهت المحن !

«اشاعات الناس كضجة البحر» - مثل

• كنت على يقين من أن سفرى من (اورنبورج) - دون استئذان - هو أساس هذه القضية كلها . وكان فى وسعى أن أبرر سفرى هذا بلا كبير عناء ، فان الخروج من (اورنبورج) لم يكن مباحا فحسب ، بل كان محبذا أيضا ، واذا كان لابد من الاتهام فيجب أن أتهم بشدة الحماسة والاخلاص والتفانى ، لا بالعصيان والخروج على ارادة السلطة . **غير أن عددا من القرائن يمكن أن يأتى مؤيدا لوجود علاقات ودية بينى وبين بوجاتشيف** ، ويمكن أن تبدو هذه العلاقات مشبوهة على أقل تقدير . هكذا ظللت طوال الوقت - الذى استغرقته الرحلة - أفكر فى الاستجواب الذى ينتظرنى ، وأفكر فى الاجوبة التى يجب على أن أسوقها . وقررت أن أطلع المحكمة على الحقيقة كلها ، لأننى رأيت أن هذا التبرير أبسط أنواع التبرير وأسلمها عاقبة .

ووصلت الى قازان .. كانت المدينة مخربة . قد أتت عليها الحرائق ، فما ترى فى مكان البيوت الا ركاما محترقا ، وجدرانا لا أبواب فيها ولا نوافذ . **تلك كانت آثار مرور بوجاتشيف !..** وقادونى الى القلعة التى ظلت قائمة فى وسط الخرائب لم يمسسها أذى . ووضعنى الجنود بين يدى الضابط المناوب ، فاستدعى حدادا وضع القيد فى رجلى ، وأحكم اقفاله بقوة . ثم قادونى الى السجن ، وتركونى وحيدا فى حجرة مظلمة ضيقة عارية الجدران ، ليس لها الا نافذة صغيرة ذات قضبان حديدية .. **ان بداية كهذه لا تبشر بخير . غير أننى لم أفقد الشجاعة ولا الرجاء .**

فكنت أعزى نفسى بما يعـزى به جميع المحزونين أنفسهم . وبعد أن ذقت ــ للمرة الاولى ــ حلاوة الصلاة تخرج من قلب طاهر ــ وان يكن ممزقا ــ نمت نوما هادئا ، دون أن أشغل بالى بما ينتظرنى .

وأيقظنى الحارس بكرة فى الغداة ، وأعلمنى أن اللجنة تريد أن ترانى . وجاء جنديان فاجتازا بى الباحة ، ثم ذهبنا الى منزل الآمر . حتى اذا وصلنا الى الدهليز ، تركانى أدخل الحجرات وحدى .. ودخلت فى بهو كبير ، فرأيت رجلين قد جلسـا الى منضدة مفروشـة بأوراق كثيرة : أحدهما لواء (جنرال) ، قاسى النظرة ، مكفهر الوجه..والآخر رئيس شاب ، من الحرس ، فى نحو الثلاثين من عمره ، لطيف المظهر ، منطلق الحركة . والى جانب النافذة ، جلس احد الكتاب الى منضدة خاصة ، وقد وضع ريشة وراء اذنه ، ومال على صفحة من الورق متهيئا لتسجيل أقوالى.وبدأ الاستجواب، فسئلت عن اسـمى وعن صفتى ، ثم سألنى القـائد ألست ابن اندريه بتروفتش جرينيف ، فلما أجبته بنعم ، قال بصوت قاس : ((**انه لمن المؤلم حقا أن يكون لرجل محترم كأبيك ابن مشين مثلك !**))

فأجبت ــ فى هدوء ــ بأننى آمل أن أبدد جميع الوشايات التى ترامت اليهم عنى ، كائنة ما كانت ، وذلك بتقرير الأمور على حقيقتها فى صراحة وصدق . فقال وهو يصعر وجهه : ((أنت يا صاحبى شاطر ، ولكننا رأينا كثيرا من الشاطرين أمثالك !)) .. عندئذ سألنى الضـابط عن الظروف التى التحقت فيها بعصابة بوجاتشيف ، وعن المهمات التى عهد

بها الى بوجاتشيف هذا . فأجبت ـ مستاء ـ بأننى نبيل وضابط ، وأننى بصفتى هذه لا يمكن أن أدخل فى خدمة بوجاتشيف ، ولا أن اقبل ان يكل الى اية مهمة . فتابع السائل يقول :

ـ **فكيف أمكن اذن ، أن لا ينجو من اللص الا حضرة النبيل الضابط ، بينما شنق جميع رفاقه على أشنع صورة ؟** وكيف أمكن أن يمضى هذا النبيل الضابط عينه الى وليمة مع اللصوص . يؤاكلهم ويشاربهم كأنه صديق حميم ؟ .. وكيف أمكن أن يقبل من المجرم الاول عددا من الهدايا : معطفا وحصانا وكيسا من المال ؟.. من أين جاءت هذه الصداقة . وعلى أى أساس أمكن ان تقوم ان لم تقم على أساس الخيانة ، أو على أساس جبانة خائرة مجرمة على أقل تقدير ؟

لقد أهانتنى كلمات ضابط الحرس اهانة عميقة ، فبدأت الدفاع عن نفسى فى حرارة . فقصصت كيف عرفت بوجاتشيف فى الفلاة ابان العاصفة ، وكيف أنه تعرفنى يوم الاستيلاء على بيلوجورسكايا ، فلم يأمر بشنقى . واعترفت بأننى قبلت المعطف والحصان ، ولكننى ذكرت أننى دافعت عن الحصن ضد جيوش اللص الى آخر لحظة ، ثم أشهدت القائد اللواء ـ الذى كنت تحت امرته ـ على سلوكى أيام حصار اورنبورج ، ذلك الحصار الأليم .. وعندئذ تناول العجوز القاسى من على المنضدة رسالة مفضوضة ، وأخذ يقرأ جهارا :

« جوابا على كتاب سعادتكم ، بصدد الضابط حامل العلم جرينيف ، المتهم بالاشتراك فى الاضطرابات القائمة وبوجود

علاقات بينه وبين اللص ، علاقات لم تسمح بها القيادة ولا تتفق مع اليمين الذى حلفه ، يشرفنى أن أنهى اليكم مايلى : ان الضابط جرينيف المذكور كان فى الخدمة باورنبورج ، من أول تشرين الاول (اكتوبر) الى اليوم الرابع والعشرين من شباط (فبراير) من هذه السنة . وفى هذا التاريخ ترك المدينة ، ولم يظهر بعد ذلك فى القطعات التابعة لقيادتى . وقد علمت من بعض الفارين الى معسكر العدو ، أنهم رأوه فى مركز بوجاتشيف ، وأن هذا صحبه الى حصن بيلوجورسكايا الذى كان يعمل فيه . أما عن سلوكه ، فاننى أستطيع .. »

وهنا انقطع عن القراءة ، وقال لى بصوت خشن : « والآن ماذا تقول ؟ »

كنت على أن أتم شروحى وعلى أن أسرد تاريخ علاقاتى بماريا ايفانوفنا ، فى مثل صراحتى حين رويت ما عدا ذلك ، لولا أننى شعرت ــ على حين غرة ــ بنفور من ذلك كبير لاسبيل الى مقاومته . لقد خطر على بالى أننى اذا أسميت الآنسة ميرونوف ، فلابدللجنة عندئذ من أن تستدعيها ، فلما تصورت اسمها مقحما فى وشايات سافلة ، وتصورتهم يستدعونها لمواجهة أقوالها بأقوالى ، اضطربت اضطرابا شديدا حتى صرت أتردد فى كلامى واتلعثم .. فلما لاحظ القضاة اضطرابى ، كان لابد أن يغيروا رأيهم فى ، بعد أن كانوا يصغون الى كلامى فى شىء من اللطف وحسن الظن . فأصدر اللواء أمره باحضار « مجرم الأمس » .. فالتفت نحو الباب فى حركة عنيفة ، وأنا أتحرق شوقا الى رؤية ذلك الذى وشى بى . وما هى الا لحظات حتى سمعت رنين السلاسل ، وفتح الباب ، فاذا بى أمام شفابرين .. شدهت للتغيير الذى طرأ

عليه . لقد كان شاحبا شحوبا هائلا ، وكان شعره – الذى عهدته منذ زمن قليل فى سواد الفحم – أبيض تام البياض ، وقد تهدلت لحيته طويلة كثة .

وكرر شفابرين اتهاماته بصوت ضعيف ، ولكن بلهجة قاطعة . فزعم أن بوجاتشيف أرسلنى الى (اورنبورج) جاسوسا ، واننى كنت أخرج من وراء الأسوار – فى كل يوم – أبادل رجال بوجاتشيف بضع طلقات وهمية من الرصاص ، **وأسلمهم تقارير مكتوبة عن كل ما يجرى فى داخل المدينة** . ثم التحقت علانية بمعسكر الغاصب ، وصحبته فى احدى جولاته من حصن الى آخر .. واننى كنت أحاول أن أسفه الخونة الآخرين – رفاقى – رجاء أن أحتل مراكزهم ، وأن استفيد مما يوزعه بوجاتشيف من مكافآت .

وأصغيت الى كلام شفابرين صامتا . وسرنى من كلامه شىء واحد : **هو انه لم يأت على اسم ماريا ايفانوفا بذكر** . ترى الآن كرامته يجرحها تذكر هذه الفتاة التى احتقرت حبه ، أم لان قلبه ما زال يحتفظ بشىء مما حملنى أنا على السكوت ؟ .. المهم – على كل حال – ان اسم ابنة آمر موقع بيلوجورسكايا لم يذكر أمام لجنة التحقيق . وهذا كله جعلنى أصر على ما عزمت عليه . حتى اذا سألنى القضاة هل ثمة ما أقوله فى الرد على أقوال شفابرين ، أجبت بأننى أصر على أقوالى الاولى ، وبأننى لا أستطيع أن أفضى بشىء آخر . فأمر اللواء باخراجنا من البهو ، فخرجنا معا . ونظرت الى شفابرين فى هدوء ، دون أن أوجه اليه كلمة واحدة ، فابتسم ابتسامة خبيثة ، ثم رفع السلاسل التى تقيد رجليه ، وأسرع

الخطو يتقدمنى فى الخروج .. وأعادنى الجنود الى سجنى، ثم لم استجوب بعد تلك اللحظة أبدا .

***

وما سأقصه بعد الآن لم أشهده بنفسى ، وانما روى لى مرات كثيرة ، حتى نقشت تفاصيله جميعا فى ذاكرتى.. حتى ليتراءى لى فى بعض الاحيان اننى شهدته بنفسى .

احتفى أبواى بماريا ايفانوفنا حفاوة عظيمة ، هى مما يتميز به أناس الزمان القديم. ورأيا فى ايوائهما يتيمة بائسة وفى احسان معاملتها ، بركة الهية هبطت عليهما من السماء . ثم مالبثا ان شعرا نحوها بحب صادق .. ذلك أنه يستحيل ان يعرفها امرؤ دون ان يحبها !.. واصبح أبى لا يرى فى عاطفتى نحوها نزوة من نزوات الشباب . أما أمى ، فقد اصبحت لا تفكر الا فى شىء واحد ، هو أن ترى ولدها «بتروشا» يتزوج هذه الفتاة الفاتنة ، ابنة الضابط الرئيس.

وقد صعقت الاسرة حين بلغها نبأ اعتقالى . وكانت ماريا ايفانوفنا قد روت لأبوى قصة علاقتى الغريبة ببوجاتشيف .. روتها تفصيلا فى بساطة تامة ، حتى ان أبوى لم يساورهما من ذلك أى قلق ، بل كانت القصة كلها موضع تندر وضحك .. كان أبى لا يستطيع أن يصدق ان من الممكن ان أشارك فى هذه الثورة الحقيرة ، التى لم يكن لها من غاية الا قلب العرش والقضاء على النبلاء . واخذ يسأل سافيليتش ويلح فى السؤال ، فلم يخف عنه سافيليتش ان سيده الشاب قد زار اميليان بوجاتشيف ، وان هذا اللص كان يحبنى فيما يظهر .. الا انه حلف أغلظ الايمان ان المسألة ليست مسألة خيانة البتة ، فهدأ روع أبوى ، واخذا ينتظران الانباء

المطمئنة بفارغ صبر . اما ماريا ايفانوفنا ، فكانت فى حالة فظيعة من القلق .. الا أنها كانت صامتة لا تتكلم ، لأنها متواضعة متحفظة ، الى أبعد حدود التواضع والتحفظ .

وانقضت بضعة أسابيع على هذا النحو . وفجأة ، تلقى أبى – فى ذات يوم – رسالة من (سان بطرسبرج) ، بعث بها اليه قريبنا الأمير « ب .. » ، وفيها يقول ان شبهات اشتراكى فى خطط العصاة قدثبتت ثبوتا قاطعا – مع الأسف – وأن العقوبة القصوى كان ينبغى أن تكون من نصيبى ، لولا ان ((الامبراطورة)) – احتراما لمآثر الأب وسنه – قررت أن تنعم على الابن المجرم ، فأبدلت الاعدام العلنى المشين بنفى مؤبد الى أقاصى سيبريا ..

كادت هذه الصدمة المفاجئة أن تقتل أبى ، فاذا هو يفقد رباطة جأشه ، واذا الحزن الذى يحتمله عادة فى صمت ، يظهر الآن فى أقوال مرة . فكان لاينى يكرر :« كيف ؟.. ابنى يشارك فى اعمال بوجاتشيف !.. اللهم رحمتك ! أتصل بى الأمور الى هذا الحد ؟.. والامبراطورة تخفف عقوبة الاعدام !.. ولكن هل يخفف هذا من كربى ! ليس موته هو الذى يزعجنى !.. لقد مات جدى الأكبر على المقصلة وهو يدافع عما كان يعتقده أمرا مقدسا ، وعذب أبى مع فولنسكى وفروستوف . أما أن يحنث نبيل من النبلاء بيمينه ، فينضم الى لصوص ، الى قتلة ، الى عبيد هاربين ، فذلك عار يلطخ أسرتنا كلها !.. »

ذعرت أمى من هذا اليأس الذى سيطر على أبى ، فأصبحت لا تجرؤ على أن تبكى أمامه . وحاولت أن ترد اليه أمله ، فأخذت تحدثه عن كذب الاشاعات ، وعن تقلقل آراء الناس .

وكانت ماريا ايفانوفنا تتألم أكثر من الجميع ، لأنها واثقة من أنني أستطيع أن أبرر عملي ، **فحزرت سبب صمتي ، واتهمت نفسها بأنها هي السبب في هذا البلاء .** كانت تخفي دموعها وآلامها عن الجميع ، دون أن تكف عن التفكير في وسائل انقاذي .. وفي ذات مساء ، كان أبي جالساً على الديوان يقلب جريدة البلاط ، دون أن تحدث فيه ما كانت تحدثه عادة من أثر ، وذلك لأن فكره الآن مسترسل في أمور اخرى .. وكان بصفر لحنا عسكريا قديما . وكانت أمي تحيك قميصا من الصوف وهي صامتة ، تنحدر دموعها على القميص من حين الى حين .. وكانت ماريا ايفانوفنا معهما، نعمل في خياطة شيء من الأشياء ، **فاذا هي تعلن لهما على حين غرة ، أنها مضطرة الى السفر الى سان بطرسبرج ،** وتطلب اليهما أن يعطياها ما هي في حاجة اليه من مال . وحزنت أمي لذلك حزنا شديدا . وقالت : « مالك وسان بطرسبرج ؟.. أتريدين أن تتركينا أنت أيضا ؟ »

فأجابت ماريا ايفانوفنا بأن مستقبلها متوقف على هذه السفر ، وانها ذاهبة الى العظماء تطلب حمايتهم ومعونتهم ، بصفتها ابنة ضابط قضى نحبه في سبيل واجبه .

خفض أبي رأسه .. لقد كان يؤلمه كل كلام يذكر بجريمة ابنه الوهمية ، حتى لكأنه يرى في مثل هذا الكلام لوما وتقريعا . فقال وهو يطلق من صدره زفرة حرى : « امضي الى شأنك يا ابنتي .. اننا لا نريد أن نحول بينك وبين السعادة . أسأل الله أن يقيض لك زوجا لم تدنسه الخيانة !» ثم نهض وترك الغرفة .

فلما أصبحت وحيدة مع أمي، أفضت اليها ببعض ماعقدت

النية عليه ، فتهلل وجه أمى ، وعانقت ماريا فى حرارة ، وابتهلت الى الله أن يبارك جهود كنتها المقبلة . ثم أعدت لها عدة السفر . وما هى الا بضعة أيام ، حتى رحلت تصحبها خادمتها الأمينة بالاشا ، ويصحبها كذلك سافيليتش .. ان هذا العجوز الذى فرقت بينى وبينه ظروف قاهرة ، كان يعزيه ان يتصور أنه يخدم الفتاة التى ستكون زوجتى فى المستقبل !

***

وصلت ماريا ايفانوفنا الى (صوفيا) ، دون ان تعترضها صعوبات . فلما علمت أن البلاط يقيم – فى تلك الآونة – فى مدينة (سلو) (١) قررت ان تتوقف فى هذه المدينة . وأقامت لدى زوجة مدير البريد ، وسرعان ما أنبأتها هذه أنها ابنة أخى الوقاد فى القصر ، ثم اطلعتها على جميع أسرار القصر ، فذكرت لها فى أية ساعة تنهض الامبراطورة من نومها ، وفى أية ساعة تحتسى قهوتها ، وفى أية ساعة تقوم بنزهتها .. وذكرت لها أسماء العظماء الذين يحيطون الآن بالامبراطورة ، بل حدثتها عما قالته الامبراطورة أمس على مائدة الطعام ، وسمت الشخص الذى استقبلته فى المساء .. الخ .

ان هذا الحديث الذى أرسلته « آنا فاسيليفنا » يساوى صفحات من التاريخ ، يمكن ان يستفيد منها المؤرخون فى المستقبل . وقد أصغت « ماريا ايفانوفنا » الى هذا الحديث فى انتباه شديد . ثم قامتا الى الحديقة تتنزهان فيها ، فقصت آنا فاسيليفنا تاريخ كل ممر وكل جسر . وبعد أن

---

(١) مقر امبراطورى يقع على بعد اثنين وعشرين فرسخا من سان بطرسبرج ، وصوفيا احدى ضواحيه .

تنزهتا ما شاء لهما التنزه ، عادتا الى البيت وقد سرت كل منهما بالاخرى أيما سرور .

وفى الغداة ، استيقظت ماريا ايفانوفنا من نومها مبكرة ، فارتدت ثيابها فى رفق ، ومضت الى الحديقة . كان الصباح جميلا : فالشمس تلقى أشعتها على ذرى أشجار الزيزفون التى أحال لونها نسيم الخريف ، والبحيرة تلمع تحت أشعة الشمس ببريق جميل ، والأوز يستيقظ فيخرج مزهوا من الادغال التى تحف بشواطىء البحيرة. وأخذت ماريا ايفانوفنا تطوف فى مرج جميل ، أقيم فى وسطه نصب تذكارى ، تخليدا لذكرى الانتصارات الرائعة التى حققها الكونت « بترو الكسندروفتش رومیانتزيف » منذ مدة يسيرة . وانها لكذلك ، فاذا هى ترى كلبا صغيرا أبيض ، من عرق انجليزى ، يعدو نحوها وهو يعوى . فأخذها خوف فوقفت فى مكانها لاتتحرك ، فاذا هى تسمع صوتا نسويا جميلا يقول : « لا تخافى .. انه لا يعض ! »

فالتفتت ماريا ، فاذا هى ترى سيدة جالسة على مقعد أمام التمثال . فجاءت اليها ، وجلست على الطرف الآخر من المقعد . كانت هذه السيدة لاتنقطع عن التفرس فيها ، وكانت ماريا ايفانوفنا تلقى على السيدة نظرات خجلى من حين الى حين ، فاستطاعت بهذه النظرات أن تفحصها من أخمص القدم الى قمة الرأس .. كانت السيدة ترتدى ثوبا أبيض من ثياب الصباح ، ومعطفا من فراء ، وقبعة من قبعات المساء . وكانت تبدو فى الأربعين من عمرها ، موردة الوجنتين ، على وجهها سيماء الهدوء والوقار ، وفى عينيها الزرقاوين وابتسامتها الرقيقة سحر لايقاوم . وأخيرا

قطعت السيدة حبل الصمت . قالت : « لاشك أنك غريبة عن البلدة » .

ـ نعم ياسيدتى . لقد وصلت أمس من الأقاليم .

ـ وهل وصلت مع ذويك ؟

ـ لا ياسيدتى ، فأنا وحيدة .

ـ وحيدة ؟ .. ولكنك مازلت فى ريعان الصبا !

ـ ليس لى أب ولا أم ..

ـ لاشك أنك أتيت لشأن من الشئون .

ـ نعم ياسيدتى ، أتيت ألتمس أمرا من الامبراطورة .

ـ انك يتيمة ، فلعلك جئت ترفعين شكوى من ظلامة وقعت عليك .

ـ لا ياسيدتى .. ما جئت أطلب حقا ، وانما جئت التمس عفوا !

ـ هل لى أن أسألك من أنت ؟

ـ أنا ابنة الضابط الرئيس ميرونوف .

ـ الرئيس ميرونوف ؟.. ذلك الذى كان آمر أحد حصون أورنبورج ؟

ـ نعم ياسيدتى .

وظهر التأثر على السيدة . فقالت وقد زادت لهجتها رقة وعطفا : « استميحك عذرا اذا أنا تدخلت فى شؤونك الخاصة .. **ولكننى ممن يحظون بالاستقبال فى بلاط الامبراطورة ، فأرجو أن تشرحى لى طلبك ، عسى أن أفيدك فى شىء ! »**

فنهضت ماريا ايفانوفنا من مكانها ، وانحنت تشكر السيدة فى احترام .. ان كل شىء فى هذه السيدة المجهولة يجذب القلب ويوحى بالثقة . استلت ماريا ايفانوفنا من جيبها ورقة مطوية ، ومدتها الى هذه الانسانة التى تولت حمايتها على غير انتظار . وأخذت السيدة تقرأ الورقة بينها وبين نفسها .. وكانت – فى أول الأمر – تقرأ فى انتباه جميل كريم . الا أن قسماتها قست فجأة . وكانت ماريا ايفانوفنا تتابع بنظرها أيسر حركة من حركاتها ، فخافت من هذا التغير الذى طرأ على وجهها ، بعد أن كان – منذ دقيقة – هادئا كل الهدوء جميلا كل الجمال .

قالت السيدة فى لهجة جافة : «تطلبين العفو عن جرينيف؟ .. ان الامبراطورة لاتستطيع أن تبرىء هذا الجانى .. **انه لم يلتحق بالثورة عن جهل أوطيش ، وانما هو شقى خطر لايعرف الايمان ولايرعى حرمة القانون ! »**

فصرخت ماريا ايفانوفنا : « ليس هذا صحيحا ! » . فهتفت السيدة ، وقد تضرج وجهها بحمرة شديدة ، على حين فجأة : « كيف لا يكون هذا صحيحا ؟ »

– أقسم لك أنه غير صحيح .. اننى أعرف كل شىء ، سأقص عليك كل شىء .. **من أجلى أنا وحدى ، انما عرض نفسه لكل ماوقع له** . ولئن لم يشأ أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة ، فذلك حتى لايقحمنى فى هذه القضية !

ثم أخذت تقص عليها – فى حرارة – كل ماقصصناه عليك أيها القارىء ، فأصغت اليها السيدة فى انتباه ، ثم سألتها عن المكان الذى تقيم فيه الآن . فلما سمعت أسم آنا فاسيليفنا ، قالت وهى تبتسم : « ها .. نعم ، عرفت ..

وداعا ! . . لاتتحدثى الى أحد عن لقائنا . . آمل أن لاتضطرى الى انتظار الجواب مدة طويلة ! » . ثم نهضت ، ومضت الى سبيلها . وعادت ماريا ايفانوفنا الى مسكن آنا فاسيليفنا وقلبها يفيض فرحا ورجاء .

لامتها «آنا» على نزهتها الصباحية ، لأن هذه النزهة قد تضر بصحة الفتاة . ثم أتت بسماور الشاى . وفيما هى تنطلق فى حكاياتها عن القصر ـ هذه الحكايات التى لا ينضب لها معين ـ اذا بعربة تدخل الباحة ، وتتوقف أمام الباب ، فينزل منها خادم من خدم القصر ، **ويعلن أن صاحبة الجلالة تدعو اليها الآنسة ميرونوف .**

فانفعلت آنا فاسيليفنا من ذلك أشد الانفعال ، وأخذت تتحرك فى اضطراب ، وهتفت تخاطب ماريا : « ياالهى ! .. ان صاحبة الجلالة تدعوك الى لقائها . كيف عرفت أنك هنا ؟ ثم كيف تستطعين أن تمثلى بين يديها يابنيتى ! .. اعتقد أنك لاتجيدين التقدم اليها على النحو اللائق . ليتنى أستطيع الذهاب معك ، اذن لأسديت اليك بعض الارشادات . ثم كيف تذهبين اليها وأنت فى ثياب السفر هذه ؟ .. ليتنى أرسل أحدا الى القابلة أسألها أن تعيرك ثوبها الأصفر ! » . **فقال الخادم ان مشيئة صاحبة الجلالة ان تحضر اليها ماريا ايفانوفنا وحدها ، كيفما تكون .** فلم يبق ثمة مجال للأخذ والرد . فصعدت ماريا ايفانوفنا العربة ، ومضت الى القصر تصحبها نصائح آنا فاسيليفنا ودعواتها .

***

شعرت ماريا ايفانوفنا أن مصيرنا رهن بهذه المقابلة ، فكان قلبها يخفق تارة ، وينقبض من الخوف تارة أخرى .

وما هى الا بضع دقائق حتى توقفت العربة أمام القصر . وأخذت ماريا ايفانوفنا تصعد الدرج وهى ترتعد . وكانت الأبواب تنفتح أمامها على مصاريعها .. واجتازت سلسلة كبيرة من الحجرات الفخمة لم تر فيها أحدا . وكان الوصيف يرشدها الى الطريق ، فاقترب – أخيرا – من باب مغلق ، وقال انه داخل يؤذن بقدومها .. وتركها تنتظر .

كانت من شدة الخوف – وهى تتصور انها ستلقى الامبراطورة وجها لوجه – بحيث لاتكاد تقوى على الوقوف على قدميها . وماهى الا لحظة ، حتى فتح الباب ، ودخلت ماريا ايفانوفنا حجرة زينة الامبراطورة .

كانت الامبراطورة جالسة أمام مرآة ، وقد حف بها عدد من الوصفاء . فلما اقبلت ماريا تباعد الوصفاء فى كثير من الاحترام ، يفسحن لها طريق المرور الى الامبراطورة .

والتفتت الامبراطورة بوجهها الذى يفيض كرما ونبلا ، فاذا ماريا ترى نفسها أمام تلك السيدة التى افضت اليها بقصتها منذ قليل فى كثير من الصراحة . نادتها الامبراطورة اليها ، وقالت لها فى ابتسامة : « يسرنى ان احقق ما قطعت لك من عهد ، وان انظر الى طلبك بعين الاعتبار . لقد انتهت قضيتك ، واقتنعت ببراءة خطيبك .. وهذه رسالة منى ارجو ان تحمليها الى حميك بيدك ! » .

فتناولت ماريا ايفانوفنا الرسالة بيد مرتجفة ، وأخذت تبكى ، وارتمت على قدمى الامبراطورة ، فانهضتها الامبراطورة ، وقبلتها . ثم قالت لها : « أعلم أنك لست بالغنية ، الا أن لابنة الرئيس ميرونوف علينا حقوقا .. لايقلقنك المستقبل ، فسأتولى تقديم مايوفر لك حياة رخية ! »

وبعد أن غمرتها بمداعباتها ، أذنت لها بالانصراف . فعادت الى مسكن آنا فاسيليفنا على العربة عينها التى أقلتها الى القصر . وهنالك اغرقتها آنا فاسيليفنا بوابل من الأسئلة ، كانت تجيب عليها ماريا كيفما اتفق . ورغم ان « آنا فاسيليفنا » استاءت من ضعف ذاكرة الصبية ، فانها غفرت لها ذلك فى كثير من الكرم والسخاء ، اذ عزته الى الخجل الذى تتصف به بنات الاقاليم . وعادت ماريا ايفانوفنا الى الريف — فى ذلك اليوم نفسه — دون أن تغريها زيارة سان بطرسبرج .

. . . .

. . . .

هنا تنتهى مذكرات بترو اندريفتش جرينيف . وقد علمنا مما تتناقله الأسرة أبا عن جد من أحاديث ، **أن بترو اندريفتش قد أطلق سراحه بأمر امبراطورى فى أواخر عام ١٧٧٤ ، وأنه شهد أعدام بوجاتشيف ،** وأن بوجاتشيف هذا قد رآه فى الحشد فعرفه ، فحياه بهز رأسه ، وأن هذا الرأس نفسه عرض على الشعب بعد لحظة مضرجا بدمه . وقد تزوج بترو اندريفتش بماريا ايفانوفنا بعد ذلك بقليل ، وها هى ذريتهما تزدهر الآن بمقاطعة (سمبرسك) .

. . . .

. . . .

على بعد ثلاثين فرسخا من بلدة س (..) تقوم قرية يملكها عشرة أشخاص . وفى أحد بيوت هذه القرية ، يدخل الداخل فتطالعه فى صدر احدى قاعاتها رسالة موضوعة فى اطار ، **هى الرسالة التى كتبتها كاترين الثانية بخط يدها ، وبعثت بها الى والد بترو اندريفتش ،** تبرىء ابنه مما نسب اليه ، وتطرى فى ابنة الضابط ميرونوف نبل قلبها وحسن ذكائها .

ان أحد أحفاد بترو اندريفتش هو الذى قدم الينا مخطوطة هذه المذكرات ـ التى كتبها جده ـ حين علم أننا نعمل فى تاريخ هذه الفترة . فقررنا أن ننشر المخطوطة مستقلة ، بعد أن استأذنا فى ذلك أصحاب الشأن . ولم نزد عليها الا بضعة أبيات من الشعر تناسب المقام ، صدرنا بها مطالع الفصول ، كما أخذنا على عاتقنا تبديل بعض أسماء الاعلام .

(١٨٣٣ ـ ١٨٣٦)

ناشر المخطوطة : الكسندر بوشكين

تمــــت

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

هذه المرأة .. من تكون ؟

اذا كان الجمال نعمة ، فان هذه المرأة بالذات قد جعلت منه نقمة .. **على امة بأسرهـا ، وفى بقعة من أقدس بقاع الارض !**

واذا كان الحب نعيما ، وعاطفة سامية ، وشعورا نبيلا ، **فان هذه المرأة بالذات جعلت منه وبالا ، وهوت به الى احط درك ، وقلبته الى حيوانية بشعة ! !**

وقد تكون لها اعذار .. فلقد ولدت فى أسرة عبثت بكل القيم والمقومات ، فى سبيل اطماعها الجامحة .. عبثت بالدين ، واتخذته اداة للغدر.. وعبثت بالشرف واتخذته اداة للدس .. وعبثت بالعواطف الانسانية ، واتخذتهـا ذرائع للتآمر ، فى سبيل بلوغ غاياتها : الحكم ، والمال ، والسيادة !

اما من تكون هى ..

فهذا ما سوف تطالعه فى العدد القادم من « مطبوعات كتابى » .. **فاحرص على ان لا يفوتك هذا العدد ، واوص البائع من الآن على نسختك !**